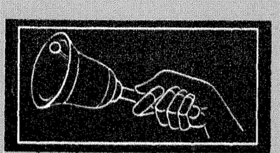
سلسلة كتب الناقوس



يراجعها ويقدم لها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

الكتاب الرابع

مستقبل روسيا

تأليف
ليونارد. ث. بيرد
ترجمة
الأستاذ علي أدهم

مُسْتَقبل رُوسيا

بقلم
ليونارد شابيرو

ترجمة
علي أدهم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
مصر

تعريف بالمؤلف

ليونارد شاپيرو

استفاد ليونارد شابيرو ، بعد سنوات عدة من الدراسة ، معرفة واسعة مفصلة بتاريخ روسيا وحكومتها ، وكتب كثيراً عن هذين الموضوعين ، وألقى محاضرات وأحاديث فى الإذاعة . وقد ألّف كتابا ضمّنه أول تحليل محكم للمعارضة السياسية فى روسيا السوفيتية خلال السنوات الأولى للنظام السوفيتى ، وسيطبع هذا الكتاب قريباً تحت إشراف معهد العلوم الاقتصادية فى لندن بمطبعة جورج بل وأولاده وبمطبعة جامعة هارفرد .

محتويات الكتاب

مستقبل روسيا

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

من الوثائق التاريخية النادرة فى اللغة العربية ، رسالة منسوبة إلى الفيلسوف أرسطو ، يقال إنها كانت جواباً منه على سؤال وجهه إليه تلميذه الإسكندر المقدونى ، مستشيراً إياه فى قتل أمراء فارس بعد فتحها ، وفى إحلال غيرهم من قادة اليونان محلهم فى إدارة شئون المملكة الفارسية . فأجابه الفيلسوف بتلك الرسالة ، محذراً إياه من مغبة هذا العمل ، وناصحاً له بالإبقاء على أمراء البلاد وسياستهم على النحو الذى أملاه ، وهو كما يلى من النص العربى البليغ :

قال الفيلسوف . (... إنك إن تقتل أشرافهم ، تخلف الوضعاء على أعقابهم ، وتورث سفلتهم منازل عليتهم ، وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم . ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم وأشد توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة وذل الوجوه . فاحذر الحذر كله ، أن تمكن تلك الطبقة من الغلبة والحركة . فإنهم إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم ، دهمهم منه مالا روية فيه ولا بقية

معه . فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من أولئك العظماء والأحرار ، ووزع بينهم مملكتهم ، وألزم إسم الملك كل من وليته منهم ، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه ، فإن المتسمى بالملك لازم لإسمه ، والمعقود التاج على رأسه لايخضع لغيره . فليس ينشب ذلك أن يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك ، وتفاخراً بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وأوتارهم فيك ، ويعود حربهم لك حرباً بينهم ، وحنقهم عليك حنقا منهم على أنفسهم . ثم لايزدادون فى ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها إستقامة ، إن دنوت منهم دنوا لك ، وإن نأيت عنهم تعززوا حتى يثب من ملك منهم على جاره باسمك ، ويسترهبه بجندك . وفى ذلك شاغل لهم عنك ، وأمان لأحداثهم بعدك ، وإن كان لا أمان للدهر ولا ثقة بالأيام . وقد أديت إلى الملك مارأيته لى حظاً وعلى حقا من إجابتى إياه وإلى ماسألنى عنه ومحضته النصيحة فيه . . .) .

* * *

هذه الوثيقة النفيسة تنسب إلى أرسطو ، كما نسبت إليه آثار كثيرة، على غير ثقة بصحة هذه النسبة ، أو على غير ثقة بصدور هذه الآثار جميعاً من قلم أرسطو ، إلا أن يكون ذلك مقولا عن لسانه بأقلام تلاميذه ومريديه . ومهما يكن من صحة نسبة الرسالة إلى قلمه أو إلى لسانه ، فالأمر الذي لاشك فيه أنها رسالة جديرة بفكر عظيم من طبقة

ذلك الفيلسوف القليل النظير فى عالم البحث والتفكير . ومما لاشك فيه كذلك أن الرسالة قد اشتملت على خطة واقعية جرت عليها دول الفتوح والاستعمار من قديم العصور ، وفى مقدمتها دولة الرومان الغربية . التى استفادت فى نظم السياسة والإدارة الحكومية ، من تجارب الفاتحين قبل عصرها الذهبى بعدة عصور ، فقد كان الرومان فى عصرهم الذهبى حريصين على اتباع تلك الخطة ، يجنحون ما استطاعوا إلى استبقاء ذوى الرآسة والزعامة فى البلاد التى يفتحونها على عروشهم تابعين لهم فى المسائل الجليلة ، مستقلين عنهم فى شئونهم الداخلية . وكثيراً ما كانوا يستغنون عن حكم البلاد حكما مباشراً بإملاء نظم الحكم وقوانين التشريع على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، فكانت طاعة القوانين الرومانية بمثابة طاعة الدولة الرومانية فى كثير من الأحوال .

ولم تزل هذه الخطة مرعية ، على عمد أو على غير عمد ، إلى العصور المتأخرة من عهود الاستعمار الحديث . . فسواء اطلع ساسة الدولة البريطانية على رأى أرسطو ، أو اطلعوا على سياسة الاسكندر فى المملكة الفارسية بعد فتحها ، فالأمر الواضح أنهم سلكوا تلك الخطة على غاية من الدقة فى حكمهم للأقاليم الهندية ، وغيرها من الأقاليم التى فتحوها أو تغلبوا عليها. فقد تركوا للراجات الهنود عروشهم ومراسم إماراتهم ؛ وفرقوا بين أقدارهم ومظاهر تحيتهم ، حتى حدث بينهم ماقال الفيلسوف أرسطو - إن صحت نسبة الرسالة - انه خليق أن يحدث بينهم فى

علاقة بعضهم ببعض ، وفى علاقتهم جميعاً بالإسكندر ودولته المتسلطة . وأتى حين من الدهر كان هؤلاء الراجات فيه أحرص على بقاء السلطان الأجنبي من ذلك السلطان نفسه ، فحاربوا من طلب الاستقلال عن الدولة البريطانية ، وسالموا من سالمها ، وشذ منهم بعض الأمراء لأسباب عارضة ، فاتفقوا مع الثائرين على الدولة البريطانية إلى حين ، ولكن هذا الاتفاق لم يبلغ قط مبلغ الإخلاص فى استنهاض الشعب للحرية الصحيحة ، والمشاركة فى توجيه سياسة البلاد .

هذه الخطة تنفع الحاكم المتسلط على الأمم المغلوبة ، وترمى إلى استبقاء السلطان فى يده ، بالتفرقة بين أعوانه من أبناء تلك الأمم ، ولم تزل مرعية كما أسلفنا إلى عهود الاستعمار الحديث . ولكنها قد انقلبت من النقيض إلى النقيض على أيدى أناس آخرين من مستعمرى هذا العهد الأخير ، وهم حكام روسيا فى عهد الشيوعية .

هؤلاء الحكام مستعمرون أو متغلبون ومسلطون على رعاياهم ، سواء حكموا شعوباً من بنى جلدتهم ، أو حكموا شعوباً غريبة عنهم لا تمت إليهم بوشيجة من وشائج الجنس أو اللغة . وخطتهم فى إخضاع رعاياهم تناقض خطط المستعمرين من قبلهم وتقلبها رأسا على عقب ، ولكن فى الواسطة دون النتيجة . إذ كانت النتيجة واحدة ، وهى القضاء

على قوة المقاومة بين الرعايا المحكومين واستبقاء السلطان كله بين أيدى المتغلبين المتسلطين ، على الرغم من أولئك الرعايا . فإذا كانت خطة الاسكندر قائمة على حفظ السلطان فى يده ، بالأبقاء على الأمراء والزعماء بين الشعوب المغلوبة — فهؤلاء المستعمرون المحدثون يعكسون هذه الخطة ، ويحفظون السلطان فى أيديهم ، بأفناء كل صالح للحكم ، سواء فى ظل الدولة الأجنبية أو فى ظل الدولة الوطنية ، ورجاؤهم كله فى إخضاع الشعوب أن يحرموها القدرة على حكم نفسها ، بحرمانها من كل صالح للحكم ، مستقلا أو مسلوب الاستقلال تابعاً لسيده الأجنبى الذى أقامه على عرشه وأوقع بينه وبين وزرائه

خطة قديمة ترمى إلى إبقاء العلية والرؤساء، تبعتها خطة حديثة ترمى إلى إفناء هؤلاء العلية والرؤساء. وكلتا الخطتين مرسومة لغاية واحدة : هى حرمان السواد الأعظم من قدرة المقاومة ومن الخروج على السلطان الأكبر المسيطر على الجميع .

إن هؤلاء المستعمرين المحدثين لا يقولون بالبداهة إنهم يرسمون تلك الخطة لتحقيق تلك الغاية ، ولعلهم لا يدركونها إدراكاً ينبعث من الإرادة ويصدر عن الفهم الصريح والروية المعقولة ، وقد علمنا من مذهبهم كيف يفسرون عملهم هذا ، وبماذا يعللون خطتهم التى لا تسمح ببقاء رأس واحد يناصى رؤوسهم ويزاحمهم على مراكزهم .

ولكننا ندع ما يقوله اللسان وما يتعلل به المتعلل وننظر إلى النتيجة الحاصلة المحققة التى لامراء فيها . فماذا تراهم كانوا يفعلون لو أنهم قصدوا فعلا بعد الروية والأمعان فى التفكير ، أن يخضعوا الرعية ويجردوها من القوة التى تعارضهم أو تناقشهم الحساب ؟ ماذا تراهم يفعلون لو أنهم أرادوا عمداً أن يتركوا المحكومين محكومين أبد الآبدين، وأن يقتعلوا من بنية الرعية جذور القدرة على الاعتراض والمحاسبة ؟ لقد كان المستعمر قديما يأمن جانب المحكومين لأن القوة التى يحاربونه بها متفرقة متنازعة . وقد أصبح المستعمر الحديث على سنة الشيوعية يأمن جانب المحكومين لأن القوة التى يحاربونه بها معدومة أو معطلة إلى زمن بعيد ، ولا ندرى أى الخطتين أسوأ وأشنع ، ولكننا ندرى على اليقين أنهما توأمان متشابهان فى أمر واحد : وهو تمكين الحاكم الأكبر من رقاب المحكومين .

* * *

ولا يخفى أن حرب الطبقات عقيدة مذهبية عند اتباع كارل ماركس قبل أن تكون خطة سياسية . لأن مذهب كارل ماركس كله قائم على تنازع الطبقات ، لا يعترف بعلاقة بينها غير علاقة العداوة والاغتصاب ، ولا يؤمن بما قررته تجارب الأمم جميعاً من تعاون الطبقات فيما بينها وتبادل النفع فى مصالحها ، وهذه عقيدة ضالة لا محل

لمناقشتها وتفنيدها فى هذه المقدمه ، وقد عرضنا غير مرة لنقدها وتفصيل أخطائها حيث تناولنا مذهب كارل ماركس بالتفصيل والتعقيب . ولكننا فى صدد الكلام على مستقبل الدوله الشيوعية ، ينبغى أن نلم إلماما عاجلا بأثر هذه الحرب الطبقية فى انتظام المجتمع ، وتنسيق أعماله ، وقيام بنيانه ، وتقرير حظه من الدوام . إذ كان حرمان المجتمع من تبادل الجهود مخلا لا محاولة بانتظامه ، منتقصاً من عوامل دوامه ، ومتى ثبت بالتجربة الطويلة أن الجهود متبادله والكفايات منوعه وأن :

الناس للناس من بدو ومن حضر

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

كما قال حكيم المعرة — فذهاب هذا التبادل داعٍ من دواعى النقص والعجز لابد ان تظهر عواقبه مع الزمن ، كما يظهر كل نقص يتغلغل فى بنية المجتمع ، ولا يتأتى تعويضه بغير الرجعة إلى النظام القويم

ومن التعجل فى الحكم على هذه المسائل الخطيرة أن ننظر إلى التنازع بين الطبقات،ولا ننظر معه إلى التعاون بينها ، وإلى حاجة كل منها إلى الطبقة الأخرى ، فأن تنازع الأفراد لعلى أشد مايكون بين أبناء الأمم، فلم يكن مع ذلك مانعاً لهم أن يشعروا بحاجة بعضهم إلى بعض ، وأن

ينتفعوا بسداد هذه الحاجة من جملة أعمالهم ومحاولاتهم ، ومنها أعمال التنازع والتنافس التى تتعادل آثارها أحياناً وآثار التعاون المقصود

إلا أن الشيوعيين ينخدعون بسهولة التسلط على الطبقة التى يسمونها طبقة الصعاليك ، ويغترون بما يلوح لهم فى مبدأ الأمر أنه حالة دائمة مستقرة ، فيمعنون فى حرب الطبقات ، ويقولون إنهم يزيلون بهذه الحرب أعداء المجتمع ممن يسمونهم بالغاصبين والمستغلين ، ويغريهم بالتمادى فى خطة هذا الاستعمار الحديث أنهم يجدون منه مساعدات كثيرة ولا يتبينون ماوراء هذه المساعدات من عوامل المناوأة أو المقاومة المؤجلة إلى حينها .

إحدى هذه المساعدات الكثيرة ، أن طبقة الصعاليك مقصورة المطالب على ضرورات مادية لايعجز الحاكم عن تدبيرها ، وإن يكن قليل النصيب من كفاية الحكم وحسن السياسة والتدبير ، وفى وسعه إذا دبر هذه المطالب المقصورة على الضرورات المادية ، أن يغلو مايشاء فى الحجر على حرية الآراء ، والحد من نشاط المفكرين وأصحاب المشاركة فى الشئون السياسية. وقد يسترسل فى هذا الغلو ويمعن فى هذا الاستبداد زمناً طويلا ولايحس من رعيته ضجراً ولاعلامة على الشعور بالحرمان من تلك الحرية ، التى تعد من مقومات الحياة الاجتماعية فى كل بيئة

متعددة الطبقات متنوعة المزايا والكفايات . ولسنا نعتقد أن الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك محرومة من المطالب الروحية والأشواق النفسية ، بل لا نعتقد أن إنساناً قط يحرم هذه الأشواق طول حياته إن جاز أن يحرمها فترة من الزمن . غـير أن طبقتهم المسماة بالصعاليك ترضيهم بسهولة خداعها وتزييف مطالبها الروحية وتتقبل منهم الدعاية المغشوشة ، فلا يتيسر لها ان تميز بين تلك الدعاية وبين الحقيقة المخدوعة عنها ، وربما طال الأجل على هذه الخديعة مالم نقطعها على الحاكمين والمحكومين أزمة دائمة تشغلهم عن مطالب الروح والجسد على السواء ، وتتيح للحاكمين متنفساً من الوقت لا يضيرهم فيه أن يثوب محكوموهم إلى ضرب من العزاء الروحى يأتيهم عفو الساعة من وحى الظروف .

ومساعدة أخرى من هـذه المساعدات الكثيرة يلقاها الحاكمون المستبدون من طبقة الصعاليك تملى لهم فى الطغيان وتغمض العيون عما يقترفون من العسف والجبروت ، ولو أفضى إلى إهدار الأرواح وسفك الدماء . . . تلك المساعدة هى طوية الحسد والنقمة التى ينطوى عليها أناس كثيرون من المحرومين والوضعاء ، وتقترن بها رذيلة القحة وحب التطاول على من يفضلونهم بالجاه أو المعرفة ، كما تقترن بها نزعة التشفى من كل عزيز يهان على مرأى من قوم طال عليهم احتمال الهوان.

وقد يطيل فى أجل هذه المساعدات أن تنحصر الأمة وراء حدودها ، وتنقطع المعاملة الشعبية بينها وبين جيرانها ، فلا يعسر على الحاكم أن يصور لها حالتها وحالة أولئك الجيران على الصورة التى ترضيها .

ولا نظن أن هـذه المساعدات من شأنها أن تدوم طويلا بالقياس إلى أعمار الأمم أو إلى عهود النظام الحكومية ، فأن الحقبة التى مرت على النظام الشيوعى بعد القضاء على النبلاء والأثرياء لم تزد على عشرين سنة . ولم تخل هـــذه السنون العشرون مع ذلك من المذابح التى كان ضحاياها أجمعين من صميم طبقة الصعاليك أو ممن ينعتون أنفسهم بهذا النعت وينتسبون إلى تلك الطبقة لأنهم لا يستطيعون أن ينتسبوا إلى طبقة غيرها .

غير أن الحالة لم تبلغ بعد مبلغ الحرج الشديد الذى يزلزل دعائم الحكم ويطيح بالحاكم فى دفعة جارفة من ثورة الجماهير . ولهذا ثابر المستعمرون المحدثون على خطتهم ، واستمرأوا مغبة جبروتهم ، وراحوا يطبقون تلك الخطة على كل أمة دخلوا فيها وأخذوا بزمام حكومتها ، وقد أخذوا بزمام الحكومة فى بلاد تفضل بلادهم علماً وحضارة كبلاد بحر البلطيق ، وأولها بلاد فنلندا التى خلت من الأميين واتسعت على ضيقها لعدد من الجامعات ينافس الجامعات الروسية . وجاء فى تقريرات بعض الولاة

الروسيين المشرفين على حكومات بحر البلطيق أنهم وجدوا طوائف المتعلمين وأبناء الطبقات المتوسطة فى هذه الأمم ساخطين محنقين لا تؤمن ثورتهم على النظام القائم بين حين وحين ، واقترح الولاة الشيوعيون فى تقاريرهم أن تساس تلك الطوائف بالهوادة ، وأن تمنح بعض الحقوق التى تعودتها ولا ينسى إخضاعها مع حرمانها منها ، فكان جواب المراجع العليا فى الكرملين أنهم قرّعوا كتاب تلك التقارير واتهموهم بجهل المذهب الماركسى أو بخيانة المبادىء الشيوعية ، لأن هذه المبادىء لا تعرف شيئاً يسمى طوائف المتعلمين أو طبقة المتوسطين وإنما تعرف شيئاً واحداً هو الذى يسمونه طبقة الصعاليك .

ومما كشفه أولئك المستعمرون المحدثون من مساعدات حرب الطبقات لهم ، أنهم وجدوا فيها أسلوباً حاضراً من أساليب الدعاية دفاعا عن استعمارهم للبلاد الغربية عنهم ، كالبلاد المجرية أو الرومانية أو البولونية ، فلم يكن أيسر عليهم من اتهام الثائرين على طغيانهم بأنهم بقية من بقايا طبقات الأشراف والنبلاء ، أو من يطلقون عليهم فى تلك الدعاية اسم الاقطاعيين ... وإنهم ليسرفون فى دعايتهم هذه إسرافا يغرى بالضحك لولا أنها مضحكات مبكيات ، وكذلك فعلوا فى دفاعهم عن طغيانهم وعجزهم الذى أثار عليهم طبقة العمال والصناع فى بولونيا والمجر ، فإن العالم

أجمع كان يتلقى أخبار الاضراب فى المناجم والمصانع ، ويعلم من أفواه المهاجرين إلى البلاد الاوروبية أنهم جميعاً من صميم الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك ، ثم يقف وكلاء الدولة الروسية فى هيئات الأمم ،فلا يفتح عليهم بدفاع يسوغون به حكمهم لأقوام لا تريدهم ولا تقبلهم ، ولا تسعد فى ظلهم — إلا بذلك الدفاع المضحك الذى يدور ثم يدور فى نطاق واحد : وهو أن أولئك الصعاليك بقيـــة من بقايا النبلاء والمستغلين والاقطاعيين المبعدين ، ولم نسمع قط حتى من أولئك الشيوعيين المحدثين أنهم قبضوا على ثائر واحد يصح أن ينتمى إلى طبقات النبلاء وأصحاب الاقطاع ، بل كان الثائرون المقبوض عليهم المنفيون عن بلادهم ألوفا من ذوى الصناعات اليدوية ومن الشبان الناشئين الذين نشأوا بعد زوال كل بيت من بيوت الأسر العريقة وتعلموا بعد قيام الشيوعية فى أوروبة الوسطى بعدة سنوات .

* * *

إلى هنا نحن فى صميم الحاضر الذى بين أيدينا لا نتطلع إلى نبوءة من وراء الحجاب ، اللهم إلا أن نمد البصر مستنبئين عما وراء ذلك الحجاب الذى يسمى تارة بالسد الحديدى ، ويسمى تارة أخرى بالستار الكثيف .

نحن فى صميم الحاضر فيما أجملنا الكلام عليه آنفاً ، فماذا نرى لو أننا

مددنا البصر إلى المستقبل القريب ثم إلى المستقبل البعيد ؟ .

علامتان ناطقتان تدلان على أن دوام هذه الحال من المحال ، وأن بقاء مجتمع من المجتمعات فى طبقة واحدة أمر لم يتحقق من قبل ، ولا نرى من التجربة التى دامت فى بلاد الروس اكثر من أربعين سنة أنه قابل للتحقيق فى هذا الزمان .

وهما علامتان يبدو من ظاهرهما أنهما نقيضان متباعدان ، ويبدو بعد نظرة يسيرة أنهما فى باطن الأمر علامة واحدة منظورة من وجهين .

العلامة الأولى : طول العهد الذى تولى فيه ستالين حكم البلاد الروسية منفرداً بغير شريك .

والعلامة الثانية : موقف أتباعه بعد موته بنحو ثلاث سنوات ، واضطرارهم لمصارحة الشعب الروسى ومصارحة العالم كله بسوء حكم ستالين ، الذى عاونوه عليه واشتركوا فيه ، وكانوا طوال عهده أدواته الطيعة فى تنفيذ مراميه .

فالعهد الطويل الذى قضاه ستالين حاكماً مستبداً ، مستأثراً بالطغيان الذى لا طغيان بعده على بلاد الروس جميعاً — دليل قاطع على بطلان

النظام الحكومى من أساسه ، لأن هذا الأساس قائم على حرب الطبقات واستئصال كل طبقة فى المجتمع ماعدا الطبقة المسماة بطبقة الصعاليك، وترجع هذه النزعة إلى إعتقادهم أن رءوس الأموال هى التى تخلق الطبقات الاجتماعية ، وهى التى تمكن أصحاب الأموال من تسخير من عداها من الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة على الأجمال. فإذا زالت رءوس الأموال ، زالت الطبقات الحاكمة المستغلة ، وزالت معها ذريعة الطغيان والاستبداد ، وتعذر على الطبقة العليا — فضلا عن الفرد الواحد — أن تستبد بمن دونها من أبناء الأمة .

ولو كان هذا صحيحاً لما استطاع ستالين أن يحكم روسيا زهاء ثلث قرن بعد القضاء على رءوس الأموال ، واستئصال الملايين من أصحابها وحصر المجتمع كله فى تلك الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك .

وقد ألمعنا إلى هذه الملاحظة ، فى مقدمتنا على الخطاب الذى ألقاه خليفة ستالين منددا بسياسته فى مؤتمر الحزب العشرين .

فسألنا : (كيف استطاع ستالين أن يستبد هذا الاستبداد فى مجتمع زالت منه رءوس الأموال ؟ كيف استطاع أن يجمع فى يديه سلطاناً لم يستطعه قيصر ، ولا شاهنشاه ، ولا حاكم بأمره من طغاة القرون الأولى.؟ بالدهاء الشخصى يستطاع هـــذا فى بلد زالت منه رءوس الأموال ؟

أبالنفوذ السياسى يستطاع هذا فى ظل مذهب يقال فيه إن النفوذ السياسى كله تبع للمنافع الاقتصادية ؟ وأن السياسة وحدها لاتوصل إلى شىء من النفوذ حيث يكون رأس المـال أو حيث لا يكون؟ وإذا كانت المنافع الاقتصادية تتيـــح لفرد واحد أن يستبد هذا الاستبداد على الرغم من أنوف الأقطاب والأنداد فى بلاده — فماذا تبلغ العيوب التى تثيرنا من رأس المال إلى جانب هذا الشر المستطير الذى يهون عنده كل مافى رأس المـال من الشرور ؟ لقد استطاع ستالين أن يستبد بالرأى وأن يضرب بأقوال القواد والسفراء والخبراء عرض الحائط فى خطب من أعظم الخطوب التى تهدد سلامة بلاده: وهو خطب الغزوة الالمانية . لأنه اعتقد أن الأخبار التى تصل اليه من الخارج عن قرب الشروع فى هذه الغزوة ملفقة لاستدراجه إلى الحرب ، ولم يكلف نفسه عناء المراجعة لتصحيح هذا الاعتقاد ، اكتفاء بتقريره أو تخمينه الذى لايخيب فى ظنه، وأصر على تكذيب النذر المتوالية بابتـداء الغزوة إلى مابعد ابتدائها واقتحام الجيوش الالمانية للحدود الروسية . وقد استطاع فى الشئون الداخلية أن يستبد فيها استبداداً أشد من هذا الاستبداد ، لانه قتل نحو سبعين فى المائة من أعضاء لجنة الحزب المركزية التى يتولى باسمها مركزه فى الحزب وفى الحكومة . ومن كلام خروشيشف عن عنادستالين فى أمر الغزوة الألمانية بعد سرد النذر التى توالت عليه من الخارج والداخل

قوله فى خطابه كما جاء فى ترجمته العربية : «وكتب كوربنوس الذى كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية — وقد قتل فيما بعد أثناء وجوده بالجبهة — إلى ستالين يقول إن الجيوش الألمانية وصلت إلى نهر باج وأنها تتهيأ لشن الهجوم وأنه من المحتمل أن تقوم بهذا الهجوم فى القريب العاجل ، وقد اقترح كوربنوس فى هذا المقام تنظيم دفاع قوى ... ولكن موسكو أجابت على هذه الاقتراحات بأن تنفيذها يعتبر استفزازاً وأنه ينبغى عدم الأقدام على اتخاذ أية استعدادات دفاعية على الحدود حتى لا نتيح للألمان فرصة التذرع بأى سبب للقيام بعمل عسكرى ضدنا . » . . . أما طغيانه فى الشئون الداخلية ، فنى الخطاب كلام مسهب عنه يطلع عليه القارىء فى مكان الترجمة ، وخلاصته كما جاء فى الخطاب أنه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ، ثمانية وتسعون اعتقلوا وأعدموا رمياً بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص . . . ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، ولكنه كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر فمن ١٩٦٦ مندوباً كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ألقى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة . . . »

هذه نبذة من خطاب خليفة ستالين - خروشيشيف - تجمل لنا تفصيلاته عن مدى تلك السيطرة التى حضرها طاغية الشيوعية بين يديه فى حكمه لمئات الملايين من بنى آدم واستبداده بأمورهم العامة والخاصة التى تتعلق بها سلامة الأمة بحذافيرها وسلامة الأفراد متفرقين . فكيف تهيأ لفرد واحد أن يجمع هـــذه السيطرة بين يديه فى بلاد زالت منها رءوس الأموال ؟ مهما يحاول جماعة المكابرين والمغالطين من دعاة المذهب فى تفسير هذه الظاهرة ، فخلاصتها التى لاريب فيها أن الاستبداد فى أقبح صوره ممكن بعد زوال الطبقات وقيام طبقة واحدة فى المجتمع بأسره .
وقد سمح كارل ماركس لنفسه بالحكم على مجتمع الصناعة الكبرى فى أوروبة الغربية ولما ينقض عليه ثلاثون سنة، فلا تثريب علينا إذا حكمنا على مجتمع الطبقة الواحدة بالزوال ، بعد هذه التجربة التى لا تقبل التفسير بعلة من علل المكابرين المغالطين ، ولا تفسير لها إلا أن حكاية الطبقة الواحدة خرافة من خرافات الخيال السقيم والطبع الوخيم .

هذه العلامة تؤيدها علامة ثانية من موقف أتباع ستالين بعد أن اضطرتهم الحوادث إلى كشف النقاب عن هذه الفضيحة ، والتشهير بالعهد الاستالينى ، وهو فى الواقع عهدهم أجمعين ، كلما اعتذروا بعذر فيه من أعذار الاضطرار أو الاختيار ، كان هـذا العذر أدعى إلى إلصاق تبعة بهم من الصمت والروغان .

فني البلاد الديمقراطية يحدث كثيراً أن تسقط حكومة وتقوم على أعقابها حكومة أخرى من حزب آخر تلومها وتنحى عليها وتعد الأمة بتصحيح أخطائها وتعديل برامجها واجتناب أساليبها فى تدبير المصالح العامة . ولا يدل ذلك على تداعى النظام الحكومى ، أو على بطلان القواعد الدستورية التى تتعاقب الوزارات على أساسها . فإن طبيعة الديمقراطية تجعل هذا التحول طريقاً واحداً من طرق الحكم يتعاقب عليه السالكون ولا يدعو الأمر إلى الخروج من ذلك الطريق .

أما أن يحدث فى الحزب الواحد والمذهب الواحد والعهد الواحد تبديل كذلك التبديل فى مناهج الحكم ، فهو نقض صريح للقواعد التى يقوم عليها النظام ولا تحتمل التبديل إلا بشمول هذا التبديل للمذهب كله .

وقد كان موقف الخلفاء المشاركين لستالين فى عهده ، والناقمين عليه بعد ذهابه ، علامة أخرى على وجوب تبديل ذلك المذهب وتبديل القواعد التى يقوم عليها . فإنه موقف طبقة حاكمة لا أكثر ولا أقل جمعت بين أيديها أزمة السلطان ، واستأثرت بها دون الملايين من الرعايا الغافلين عما يجرى فى دواوين الحكومة أو فى برامجها العامة . فقد كان قيام الصناعة الكبرى سبباً لظهور طبقة جديدة أقوى نفوذاً من طبقة

رأس المال فى البلاد الأخرى ، وأرسخ قدما فى دواوين الحكم من كل حكومة دستورية تحتل كراسى الدولة مع بقاء رءوس الأموال ، سواء بقيت فى أيدى الأفراد أو أيدى الشركات .

* * *

ونحسب أن القارىء يتعجلنا الآن ولا ينتظر نبوءة المستقبل لنكشف بها عما هو حاصل غنى عن النبوءات ، فلا حرج علينا من أن نقول بغير تردد إن الحالة فى روسيا لم تدم كما أرادوها أن تدوم ، ويغنينا عن النبوءات الجزاف فوق هذا ، أنه ما من قارىء فى العصر الحاضر يجهل أن المذهب الماركسى لم يقم قط فى البلاد الروسية منذ ثورتها الكبرى وأنه لم يزل يتحول ويتبدل عاما بعد عام حتى لو رآه كارل ماركس — بل لو رآه لينين — فى هذه الأيام لما عرفه ، ولا عرف أن النظام القائم فى البلاد تطبيق للمبادىء والبرامج التى دعا إليها ماركس وتبسط فيها لينين فقد سمحوا بإقامة الشعائر الدينية وسمحوا بملك الأرض وتوريثها للأعقاب ، وسمحوا بتقدير الأثمان وتسعير السلع من الكماليات والضروريات ، وسمحوا بتفاوت الأجور وأحوال المعيشة بين طبقة العمال أنفسهم ، فضلا عن طبقة الخبراء والحكام ، وسمحوا بالفرق الكبير فى جرايات الطعام وأماكن السكنى ودرجات التشريف والتعظيم ،

بل سمحوا بالفرق فى درجات السكك الحديدية ووسائل المواصلات ، ولم يتركوا شيئاً واحداً يتساوى فيه أبناء الطبقة العاملة إلا مايتساوى فيه أبناء هذه الطبقة فى جميع الأقطار سواء كانت من الأقطار الديمقراطية أو الفاشية أو التى تنتحل الاشتراكية بإسم من مختلف الأسماء .

ولا ننسى أن زوال الطبقات كان فى رأى الماركسيين نهاية مقدورة لأمم العالم بأسره ، وليست مقصورة على أمة واحدة تنتحل الشيوعية وحولها من يدين بغير هـــذا المذهب ، أو من يعارضه ويعمل على إسقاطه .

ولا ننسى كذلك أن قيام نظام يهدد النظم المجاورة له ، مستحيل مالم يتحول أحد النظامين عن غايته . فلا مناص من تحول بلاد الروس عن الشيوعية ، أو تحول البلاد الأخرى عن المذاهب التى تقاومها وتعاديها ، وقد فطن ولاة الأمر فى روسيا إلى هذه الحقيقة ، فعملوا جهدهم فى الدعاية والدسيسة لتحويل أمم العالم عن نظمها الاجتماعية ، لأنهم أيقنوا أن دوام نظامهم مستحيل كما أسلفنا ، مع دوام النظم الاجتماعية الأخرى . فالآن يشعر ولاة الأمر فى البلاد الروسية بالحيرة الشديدة بين أتباع تلك السياسة وبين العدول عنها ، لأنهم وجدوا أن إثارة الأمم المخالفة لهم فى النظم الاجتماعية تثير عليهم حرباً شعواء من جميع تلك

الأمم ، وتقيم بينهم وبينها حواجز من العداوات وضروب الحجر الاقتصادى والسياسى لا تطيقها أمة فى هذا الزمن الذى اشتبكت فيه العلاقات واتصلت المعاملات .

هذا مع أن اضطرارهم هم أنفسهم إلى التحول عن مبادئهم — خليق أن يجعل العدول عن سياسة الدعاية العدائية ضرورة مساوية على الأقل لضرورة الاجتهاد فى تحويل العالم بأسره إلى نظام الشيوعية ، وبخاصة بعد أن ثبت لهم أنهم عاجزون عن إقامة ذلك النظام بمبادئه المقررة عندهم ، فهم أحرى أن يعجزوا عن إقامته عند غيرهم ، ولا سيما إذا كانت محاولة ذلك كمحاولة إعلان الحرب على عشرات من الدول والحكومات والشعوب .

وآخر ما اهتدوا إليه من مخرج للتخلص من هذه الحيرة ، أنهم أعلنوا حل الكومنترن ، واستبدلوا به هيئة الكومنفورم ، ثم أعلنوا حل الكومنفورم وزعموا أنهم بمعزل عن أحزاب الشيوعية خارج البلاد الروسية ، إلا أن تكون الرابطة بينهم كافة من قبيل الرابطة بين أصحاب الرأى المشتركين فى الأمل والشعور .

لابد إذن من تحول روسيا عن الشيوعية ، أو تحول العالم بأسره إلى الشيوعية ، وقد رأينا أن الروسيا « تتحول » وأنها تبتعد عن

مذهب كارل ماركس قبل أن يقترب منه سواها . فمن علامات الحاضر التى تنبيء عن المستقبل نبأ اليقين أن مصير روسيا فى غير اتجاه الشيوعية ، وأن مصير الشيوعية نفسها إلى الزوال ، ويعجل بزوالها أنها مذهب متطرف غاية التطرف لا يقبل التوسط بين الطرفين . فإن قبل التوسط بين آراء كارل ماركس وغيرها من الآراء الاجتماعية : فتلك هى الاشتراكية المعتدله ، أو تلك هى الاشتراكية الديموقراطية التى تدين بها أكثر شعوب العالم فى العصر الحاضر ، وتستطيع أن تتوسع فيها ، وتمعن فى تنفيذها حيث يعجز المتعصبون للمذهب الشيوعى الماركسى عن تنفيذ ما هم مصرون عليه متشبثون معه بتعلات الأوهام والاحلام .

* * *

مستقبل روسيا الاجتماعى إذن فى غير اتجاه الشيوعية ، ولعلها ترجع إلى الاشتراكية المعتدلة يوم تكون الشعوب الأخرى قد تقدمت إلى هذه الاشتراكية بخطوات أثبت من خطوات الشيوعيين وأولى منها بالنجاح والدوام .

مستقبلها الاجتماعى فى غير الاتجاه الشيوعى ... فما هو مستقبلها السياسى ياترى فى محيط العلاقات الدولية ؟

قبل عشرين سنة كان من المظنون أن العاطفة الشيوعية وحدها، كافية لتوثيق عرى الصداقة بينها وبين الأمم التى دخلت فى حظيرة الدولة الروسية بالقوة أو بالمساومة، وكان من المظنون أن تلك الأمم ترضى بحكم الروس لها لأنها شيوعية وهم شيوعيون، كما كان أبناء القرون الوسطى يرضون بالخضوع لغيرهم لأنهم من أتباع دينهم أو عقيدتهم.

فأما والعقيدة الشيوعية لا تستقر على قرار، ولا توثق عرى الصداقة بين قادتها ومريديها فى بلادهم، فمن التعلق بالمحال أن يقوم عليها أمل القوم فى تمكين الامبراطورية الروسية من إخضاع جيرانها المحيطين بهم لأنها شيوعية وهم شيوعيون، وأدعى من ذلك إلى توهين ذلك الأمل أن الحكومة الروسية عجزت عن إقناع الخاضعين لها بحظهم من المعيشة بعد أن عجزت عن اقناعهم بالرأى والعقيدة، فلا هم مستقلون ينعمون بفخر الاستقلال، ولا هم راضون عن معيشتهم يتعزون بها عن ضياع استقلالهم، ولا هم مؤمنون بحق الروس فى السيطرة عليهم والارتفاع فوق كواهلهم، فلا جرم نرى فى كل مكان يحيط بالدولة الروسية من جيرانها الخاضعين لها بوادر القلق والاضطراب بل بوادر الفتنة والثورة، بل الثورة الجامحة التى تخبو اليوم حتى تنفجر بعد أيام.

وربما كان شأن الدول المستفلة التى تصادق روسيا ، ويحسبها من يغتر بالأسماء فى عداد الشيوعيين ، أخطر على الدولة الروسية من جيرانها الخاضعين لسيادتها على صورة من صور الخضوع المختلفة ... ولنضرب المثل بأكبر هذه الدول وهى دولة الصين الحمراء فى ذرف المغترين بالأسماء . . ! فهذه الدولة الحمراء أخطر على سادة الكرملين من المجر والبلغار والبولونيين .

هل يطمئن سادة الكرملين إلى تقوية الصين وتعزيز مواردها الصناعية ؟ إنهم إن فعلوا ذلك خلقوا الى جانبهم مارداً يسحقهم بأقدامهم أو يغطى بنفوذه السياسى على نفوذهم فى محيط السياسة الدولية .

هل يجهر سادة الكرملين بالحذر من ذلك المارد ، ويعملون جهرة أو سراً على إضعافه وتعويق نهوضه ؟ إنهم إذن يدفعون به إلى أحضان الدول التى تعاونه إذا أحجموا هم عن معاونته ولو من قبيل النكاية بأعدائهم سادة الكرملين . ولا يفوتن أحداً أن الصين قد سبقت الروسيا الحمراء الى مفارقة المذهب الماركسى ، لأنها بدأت ثورتها باصطناع الفلاحين ، وتوزيع الأرض عليهم ، وجعلتهم ملاكا للأرض الزراعية ، يحاربون الشيوعية الماركسية لو أنها فرضت عليهم ، إلا أن تؤول إلى مذهب من مذاهب الاشتراكية المعتدلة .

فأذا كانت الروسيا الاجتماعية صائرة إلى غير الشيوعية ، فالروسيا الامبراطورية لاتثبت على قدمين راسختين ، ولا يسعها أن تحشد فى معترك السياسة قوة تضارع فى موقف الخطر قوى المعسكر المناوىء لمعسكرها .

ومن يدرى ؟ .... لعلها تنشق غداً عن عشرات من الأمارات والولايات المتحدة كما كانت قبل أن توحدها فتوح القياصرة .

ومن يدرى ؟ لعل روسيا الحمراء ستصبح بين الأمم بيضاء ناصعة البياض حين يحمر غيرها بعض الاحمرار إذاجاز أن توصف الاشتراكية اليسارية بالصبغة الحمراء .

وبعيدٌ جداً أن تعود روسيا إلى القيصرية ، وغير قريب أن تعود إلى نظام رأس المال كما يعهده العالم بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

أما ماهو أبعد من هذا أو ذاك فهو أن يقوم مستقبل روسيا على الشيوعية أو على الامبراطورية الواسعة باسم الشيوعية .

والله أعلم بالغيب والشهادة .

* * *

وبعد ، فأن الرأى الذى بسطته هذه الرسالة عن مستقبل روسيا ،

قد شرحه بطبيعة الحال مؤلفها كما بدا له من تجاربة الكثيرة ومشاهداته القريبة ، وهى التجارب والمشاهدات التى تؤهله لها معاشرته الطويلة لولاة الأمر فى البلاد الروسية ، واختلاطه عن كثب بجمهرة الشعب هناك من المثقفين وعامة الدهماء . ونحن لانقدم لهذه الرسائل لتؤيد مؤلفيها فى آرائهم ، أو نرجح وجهة نظرهم على غيرها من وجهات النظر المتضاربة ، ولكننا إنما نقدم لها لنحيطها بأطار من الآراء المتداولة فى موضوعاتها،والآراء التى يلوح لنا أنها أدنى من سواها إلى القبول ومطابقة الاحوال ، ثم يأتى رأى مؤلف الرسالة بوجهة نظر من وجهات نظر شتى يقرنها من شاء بما عداها ليرجح ماشاء بين مذاهبها المتشعبة .

على أننا نحسب أن الاستاذ ليونارد شابيرو ، مؤلف هذه الرسالة ، لم يناقض رأيا من الآراء الراجحة فى نظرته إلى مستقبل روسيا ، بل رسم لهذا المستقبل طريقين يوافقان وجهات النظر جميعا ، لأنه وكل الحكم على مستقبل الأمة إلى قوتين متعارضتين فى الغاية والخطة : وهما القوة المتمثلة فى ولاة الأمر وأصحاب السيطرة الفعلية على حكومة البلاد ، ثم القوة المتمثلة فى الشعب المحكوم والجمهرة الغالية من سواد الرعية ، وفى مقدمتهم جمهرة المثقفين والمستنيرين ، وكلتا القوتين ، كما تراءى للمؤلف ، ترمى إلى غاية لابد أن تقاطع الغاية الأخرى فى يوم من الأيام ، لأن ولاة الأمر يهتمون بالتسليح واستبقاء السلطان فى

أيديهم ، بمسابقه الدول الكبرى فى أنواع السلاح . وليست هذه غاية يكترث لها الشعب الراغب فى رخاء العيش واستقرار السلام وإقامة العلاقات بين بلاده وسائر بلاد العالم على أسس المودة وتبادل المعاملات بالحسنى .

قال المؤلف الخبير « إذا نظرنا إلى المستقبل ، وهو ما يعنينا النظر إليه ، رأينا سمتين بارزتين ترجحان بأن المعارضة الكامنة للنظام قد تكتسب تأثيراً وأهمية كافيتين لأحداث تغيير فى طبيعة ذلك النظام ، وأنها إما أن تنآى بالدكتاتورية عن الانسياق مع تيار الأفكار المتطرفة المستولية عليها ، أو ترغمها على فسح الطريق لنظام من أنظمة الحكم أقرب إلى المعقول »

ثم قال : « إن مصلحة الدكتاتورية ستتعارض فى النهاية مع مصالح الطبقة الوحيدة التى ترتكز عليها لدوام بقائها — وهى طبقة الارستقراطية المتخصصة — والدكتاتورية ، مدفوعة بدافع سياسة الصراع الدينمى ، وهو ميراث النظرية الماركسية ، بسعيها لأذاعة الشيوعية فى العالم — تتجه إلى التوسع ، وتزيد التوتر الدولى نتيجة لذلك ، ومعنى هذا انخفاض مستوى المعيشة لاحتمال أعباء التسليح ، وتغذية حمى الحرب لتسويغ حاجة الحكومة المستمرة (إلى الكبح والشدة) ولكن الصفوة التى

تعتمد الحكومة الشيوعـــية عليها ، والتى تمدها بالقوة والكفاية اللتين تدين لهما بالبقاء ، ليس لها مثل هذا الهدف الدينامى ، ومصالحها على النقيض من ذلك هى السلام مع العالم الخارجى ، وتراخى التوتر العالمى تبعاً لذلك ، وتقليل نفقات التسليح لمعالجة مستوى المعيشة المنخفض ، وربما تكون طبقة المتخصصين صاحبة الامتيازات أو الضباط فى روسيا السوفيتية لم تتحقق بعد من وجود هذا التناقض فى الأهداف ، وربما كانوا لايزالون يعتقدون كما قيل لهم مراراً وتكراراً خلال سبع وثلاثين سنة ، أن هدف العالم الحر هو تحطيم روسيا وتقطيع أوصالها . ولكن فى اليوم الذى يعرفون فيه أنه ليس هناك عداء بينهم وبين العالم الحر ، وأن الذى يهدد مصالحهم ليس هو الغرب الرأسمالى وإنما هم حكامهم الشيوعيون ، تظهر فى الاتحـاد السوفيتى قوة جديده غير منتظره ، وواجب الغرب أن يبذل ما يستطيع لتقريب ساعة اليقظة للأبقاء على السلام والحريه .

هذا هو محور الصراع الذى يتوقف مستقبل روسيا على نتيجته ، وكل ماذكره المؤلف فى هذه النبذة الموجزة صحيح متفق عليه ، ولكنه جانب واحد ، يقابله جانب آخر لايقل عنه فى الخطر وفى القدرة على توجيه مستقبل الدولة الروسية والأمة الروسية على السواء .

ذلك الجانب الآخر الذى لم يظفر من مؤلفنا بمثل اهتمامه بمحور الصراع الداخلى بين الشعب وحكومته ـ هو ذلك الموقف المستحيل بين روسيا والعالم كله ، ونقول إنه موقف مستحيل لأنه لابد أن يسفر عن تحويل روسيا للعالم عن نظمه الاجتماعية أو تحويل العالم لروسيا عن نظامها القائم فيها إلى اليوم .

إما أن تتحول روسيا فقد ذهبت اذن سطوة الدكتاتورية فيها..وإما أن يتحول العالم فقد شملته الدكتاتورية الروسية من أقصاه إلى أقصاه، ونظرة يسيرة إلى كلا الاحتمالين كافية لترجيح هذا أو ذاك ، وعندنا أن الجانب الراجح منهما هو تحول الروسيا فى داخلها وفى علاقاتها العالمية . وهذه مقدمة تتبعها مقدمات كثيرة . وتتبع تلك المقدمات أطوار متعاقبة لا تزال اليوم وراء حجاب الغيب المجهول .

يقول المؤلف : (إن مستقبل روسيا لايمكن ان ينظر اليه بمعزل عن مستقبل سائر الانسانية ، وما دامت الشيوعية لاتكف عن الضغط على حرية رعاياها والشعوب الخاضعة لها ، فأن التهديد بالخراب الشامل لازال قائما ، ولذلك فأن سلام العالم يمكن أن يتوقف فى النهاية على تصحيح هؤلاء الذين يعيشون الآن تحت الحكم الشـــيوعى على أن يصطروا حكامهم إلى نبذ نظرية لاتؤدى إلا إلى الخراب)

أو صحيح هذا ؟

نعم : إنه لصحيح بالقدر الذى ذهب إليه المؤلف إذ قال إن سلام

العالم يمكن ان يتوقف فى النهاية على مصير روسيا . . . إلا أننا ينبغى أن نقف عند تقدير الامكان ولا نتجاوزه إلى الحتم واللزوم الذى لافكاك منه . فان العالم أكبر جداً من أن يتوقف مصيره النهائى على مصير أمة واحدة أو أمم عدة تحكمها دولة واحـــــدة ، لقد تبدلت الامبراطورية الرومانية ولم يخرب العالم ، بل تجددت فيه بعدها قوى عظيمة للتعمير واستئناف ركب الحضارة على منهاج غير منهاج تلك الدولة ،وقد تبدلت الامبراطورية المقدسةوتبدلت بعدها امبراطوريات أعظم منها ولم يخرب العالم ، بل اتسعت فيه مناهج الحضارة ونشطت فيه أمم وحكومات كانت مغمورة خاملة قبل ذلك .

والحق أن المؤلف الخبير بالمسألة التى تصدى لبحثها ، لم يغفل عن ناحية واحدة من نواحيها وإن كان قد أعار بعض هذه النواحى قسطا أوفر من الذى أعاره لغيرها .

ولعله من المطابقة بين خبرة المؤلف وخبرة المترجم إلى اللغة العربية أن التاريخ العصرى شاغل يسترعى عناية المؤلف الخبير والمترجم القدير ،فأهم الأستاذ على أدهم مترجم هذه الرسالة غنى عن التعريف، بما عهده قراؤه من دراساته التاريخية وثقافته الواسعة التى تأتى فلسفة التاريخ فى طليعتها وحسب القراء منه أنه استطاع أن يجعل من هذا البحث السياسى قطعة أدبية ترضى ذوق الأديب كما ترضى فكر الباحث المنقب عن تاريخ العالم فى عصره الحديث .

عباس محمود العقاد

مقدمة

إلى أى حد نستطيع أن نتنبأ باتجاهات التطور فى داخل روسيا ؟ هذا سؤال لايغرينا به مجرد حب الاستطلاع العقلى ولا الشغف بمعرفة الطوالع السياسية ، وإنما يدفعنا اليه باعثان لهما نصيبهما من الرجحان ، الباعث الأول أن مستقبل شعب عظيم موهوب قد انقطعت علاقته قرابة ثلث قرن بسائر العالم الحر مثل الشعب الروسى لايمكن أن يكون موضوعاً لايؤبه له ، ومحاولات روسيا بناء مجتمع جديد قد جرّت على الملايين ألواناً من الشقاء لانظير لها ، ولم يصلنا من أخبارها إلا النزر اليسير . وقد انتهى إلينا خلال ستار من الكتمان : وصوت روسيا الذى يبلغ الأسماع فى العالم هو صوت حكامها — فهل هذا الصوت هو حقيقة صوت الشعب الروسى ؟ وهل يجىء الوقت أو هل جاء الوقت الذى يتحدث فيه أخيراً هؤلاء الحكام بصوت جديد نستبين فى نبراته رغبات الشعب الروسى ؟

هذه المسائل ليس من حقنا أن نتجاهلها ، والنزاع والصراع الناشبان بين ساسة اليوم قد يؤثران غداً فى حياة الملايين الذين يزعم هؤلاء

الساسة أنهم يتكلمون باسمهم . وليس من حق كل واحد منا فحسب ، بل من واجبه ، أن يسأل هل هذا الادعاء صحيح ؟ وفى البلاد المحكومة حكما دمقراطياً تؤكد عملية الانتخابات الحرة وحرية الصحافة والرأى العام إلى حد ما أن ادعاء الحكومة الكلام باسم الأمة له ما يسوّغه ، ولكن الشعب فى نظام الدولة الكلية ليس له مثل هذه الوسائل للسيطرة على الحكومة ، وواجب هؤلاء الذين يسّر لهم الحظ أن يعيشوا فى ظلال الحرية أن يخطروا ببالهم مصائر هؤلاء الملايين الذين لاصوت لهم ، ولكن « هل أنا موكل بحراسة أخى » ؟ لقد أجاب التاريخ عن هذا السؤال المتقادم العهد بنعم لا جمجمة فيها ولا تردد ، فمنذ سنوات ليست بالكثيرة عانى ملايين من الرجال والنساء الشدائد ونابتهم النوائب لأن ساستهم لم يدركوا فى الوقت المناسب أن طبيعة حكم «هتلر» السىء لا تخص الألمان وحدهم ، وما كان يبدو يوماً على أكثر تقدير أنه مسألة أدبية ظهر فى اليوم التالى أنه من أقوى الأسباب الباعثة على نشوب الحرب العالمية وأجلها خطراً ، وقد بدأ يتكشّف للبشر برغم المادية التى تشوه الحضارة الإنسانية — أنه ليس هناك فى النهاية مشكلات حقيقية سوى المشكلات الأدبية .

وفى الصفحات التالية بعض الأفكار عن مستقبل روسيا لم ينظر

فيها إلى مستقبل الحكومة الروسية ومستقبل الشعب الروسى باعتبارهما بضرورة الحال شيئاً واحداً ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تلقى منا الرعاية اللائقة التبعة الأدبية التى تقوم عليها العلاقات الدوليةالعادلة جميعها . وفى عالم اليوم الذى فرّقت شمله « الحرب الباردة » من السهل أن تتغلب علينا عادة تقسيم الدنيا إلى غرب وشرق ، أو إلى « العالم الحر » و « عالم الشيوعية » وهى صورة هزلية يبدو فيها كل شىء فى العالم الحر صالحاً ، وكل شىء فى عالم الشيوعية سيئاً ، ومن مثل هذه العقلية تتولد الحرب ، وقد كتبت الصفحات التالية للتحذير من عواقبها ، وتقسيم العالم على هذا النمط يهدد بوقوع كارثتين ، الأولى الانحراف الأخلاقى فى النأى بأنفسنا عن الملايين من البشر الذين يعيشون تحت وطأة الشيوعية وهم من ضحاياها لا من أسنادها ، والثانية الخطر الكبير الكامن فى أننا بمبادرتنا إلى القاء اللوم على غيرنا من أجل عيوب العصر الحاضر جميعها قد نميل إلى غض الطرف عن الكثير من عيوب مجتمعاتنا التى تتطلب العلاج السريع .

وهناك سبب آخر لاهتمامنا جميعاً بمستقبل روسيا ، وذلك أن تأثير تكوين حكومتها الدينامى فى جوهره على الدول الاخرى ربما لم يستكمل تحقيقه بعد ، وهو تأثير دينامى ، لانه مستمر ومنفرد وله

هدف معلوم — انتصار الشيوعية فى جميع أنحاء العالم ، وهذا الهدف يظل ثابتاً رغم الأسماء المتوالية التى وصف بها مثل « الثورة العالمية » أو « إنهاء التطويق الرأسمالى » وكل عمل تقوم به الحكومة الروسية فى علاقاتها مع العالم الخارجى يتجه نحو هذا الهدف النهائى ويرمى إلى إدراكه ، وقد تتغير الأساليب كما أنه من المحقق أن اللغة تتغير ولكن الهدف يظل ثابتاً ، ولا شك أنه من الأدلة الواضحة على قوة الماركسية من حيث هى نظام اطراد السياسية الروسية على نمط واحد لم يتغير منذ سنة ١٩١٧

وفى سنة ١٩١٧ كانت قوة لينين العظيمة وهو يسعى فى سبيل التفرد بالسلطة مستمدة من وحـــدة الغرض ، مقترنة بأقصى المرونة فى تخير الأساليب . وقد امتازت سياسة ستالين وخلفائه بهذه السمة نفسها . وفى شهر فبراير من سنة ١٩١٧ طاحت الثورة الدمقراطية الخالصة بالحكم الأوتقراطى الروسى ، ولم يشترك لينين والشيوعيون فى هذه الثورة ، وشرع لينين فى العمل على تحطيم هـذه الدمقراطية الجديدة ، وعلى ان يجعلها مطية للتمكين لحزبه الشيوعى ، وكان نجاحه يرجع إلى حد كبير إلى إخفاء حركاته الهجومية فى المعركة وإظهارها فى صورة خطوات للدفاع عن روسيا الجديدة الدمقراطية ضد تهديدات خيالية من « المحافظين » ،

وكما خدع حينذاك كثيرون من خصومه (ولم يتنبهوا إلا بعد فوات الأوان) فكذلك الآن كل حركة جديدة فى روسيا يقوم بها الحكام الروسيون فى الصراع لبلوغ الهدف الشيوعى النهائى ستجد دائماً عدداً كافياً من الناس فى العالم الخارجى تخدعهم الدعاية التى تتستر بها هذه الحركة،وهناك كثيرون على استعداد لأن يتجاوزوا عن الحركات العدوانية التى يقوم بها الروسيون ويبرروها باعتبارها حركات دفاعية أو يعزوها إلى الاستثارة من جانب الدول الغربية ، ولسوء الحظ ان معرفة النظرية الماركسية من قرب تثير الكثير من الشك فى قيمة هذه التفسيرات .

ولب النظرية الماركسية هى الصراع ، الصراع بين الطبقات فى المجتمعات الفردية ، والصراع بين المجتمعات الاشتراكية والمجتمعات غير الاشتراكية فى المجتمع العالمى،وحتى الآن قد حاولت المجتمعات التوفيق بين الطبقات الاجتماعية أو بين الأفراد والدولة عن طريق القوانين والقضاة المستقلين وهيمنة الرأى العام التامة على التشريع .

ولكن ليس هذا حال الحكام فى المجتمع الماركسى ، فهؤلاء الحكام يرحبون بالصراع باعتباره جزءاً من الحركة التاريخية التى يسفر فيها انتصار جماعة العمال النهائى عن مجتمع خال من الطبقات،وفى هذا المجتمع (نظريا) لا يكون صراع من أى نوع ، ولذلك يبذل الشيوعيون متى

أستولوا على الحكم قصارى جهدهم لتأريث نيران الصراع ، ومن سوء الحظ ان النتائج فى الواقع لا تتجاوب مع النظريه كما يحدث عادة فى الثورات، فالخصوم الرئيسون الذين يجد الشيوعيون أنه لا مناص من سحقهم (إذا كانت روسيا والدول الدائرة فى فلكها تتخذ مثالا) ليسوا هم فى الواقع المستغلين وإنما هم المزارعون وأعضاء الاتحاد التجارى ،وذلك على حين ان انتصار الحكم الشيوعى لا يجىء بالمجتمع الخالى من الطبقات وإنما يُؤدى إلى عدم مساواة فى الدخل والامتياز ليس لها نظير فى أى حكومة رأسمالية ، وعدم المساواة هذه تستلزم فى دورها شرطة أقوى وجهازاً للإرهاب أشد وطأة مما عرف فى أى مجتمع فى تاريخ العالم .

والحال فى داخل البلاد كما هو فى الخارج . ويعتقد الشيوعيون كما قال لينين فى سنة ١٩١٩ « ان وجود الجمهورية السوفيتية جنباً إلى جنب مع الدول الإمبريالية زمناً طويلا أمر غير قابل للتصور ، وفى النهاية لابد من انتصار أحد الطرفين » وانتصار أحد الطرفين يفترض وقوع الصراع المسلح ، وإذا اعتقدت أو حملت نفسك على الاعتقاد بأنك لابد فى النهاية من أن تُهاجِم أو تُهَاجَم فالخطوة جد قريبة بين ذلك وبين جمع السلاح والأخذ بسياسة نزاعة إلى الحرب ، وقد يقال على سبيل الجدل انه إذا كان الاتحاد السوفيتى يعتقد ان الغرب يتسلح ليهاجمه فإن هذا

الاعتقاد لا يزيد عن اعتقاد الغرب فى تسلح الجمهورية السوفيتية ، وان الدول الحرة إن لم تكن تامة التسليح فإنها تصبح مهددة بهجوم من الدول الشيوعية ، وهذا حق ، ولكن دول العالم الحر لم تصل إلى هذه النتيجة فى سنة ١٩١٩ مثل لينين ، وإنما وصلت إليها بعد تجربتها المرة للسياسة الروسية فى مدى ثلث قرن .

ونظرية المعركة المحتومة الكامنة فى السياسة السوفيتية تلك النظرية التى أدت بالعالم إلى نتائج محزنة ، والتى قد تسوق نحو الحرب ، ميراث التحليل الزائف الذى تقوم عليه الماركسية ، وذلك لأننا إذا سلمنا بأن السلام الدائم الحقيقى بين مايسمى « العالم الاشتراكى » وما يدعى « العالم الرأسمالى» (وفى الواقع ان المثل العليا للاشتراكيين قد اقتربت إلى حد أكبر من التحقيق فى هذا النظام) من الأشياء الممكنة فان هذا يثبت أن الحركة الجدلية التاريخية جميعها زائفة ، وهذا هو جوهر النظرية الماركسية ، وذلك لأن تقدم المجتمعات تبعاً لقوانين هذه الحركة الجدلية التاريخية لايتم إلا عن طريق الصراع المستمر بين القوى المتعارضة حتى تصل إلى مجتمع نهائى أسمى وأكثر تقدماً ، ومهما يكن من الأمر فإن هناك سببا آخر أهم من الوجهة العملية يجعل لنظرية الصراع المستمر قيمة

كبيرة فى رأى الديكتاتورية المسيطرة على روسيا سواء فى الداخل أو فى علاقاتها الخارجية .

وقد كشف هذا السر لينين أستاذ الثورة العظيم ، ففى خلال الأشهر الثمانية التى جربت فيها روسيا العهد الدمقراطى الوحيد القصير فى تاريخها كان لينين يعلن بغير انقطاع الحاجة إلى الحرب حتى الموت ضد كل الأحزاب الاشتراكية من أجل تمكين حزبه الصغير من الوثوب إلى الحكم ، وقد استطاع بذلك اسقاط الحكومة المؤقتة ، وسلبها القدرة على مقاومة الهجوم البلشفيكى الأخير . وحينما استولى البلاشفة على الحكم فرض لينين نظرية الصراع المستمر ليضمن هو وأنصاره البقاء فى الحكم ، وكان الذين يعارضون لينين — سواء كانوا من العمال أو الاشتراكيين حسبما يبدون من سياساتهم أو من أصولهم الإجتماعية للذين لا يعرفون الحقائق — يوصمون بأنهم جميعاً من الخطرين المعارضين للثورة وأنهم من الحرس الأبيض عملاء البورجوازية ، وكانوا يُبَادون لأجل حماية (١) « الثورة » .

---

(١) حسب الاحصائيات الرسمية السوفيتية لسنة ١٩٢١ كانت أكبر نسبة مئوية لمن أدانتهم محاكم الثورة من المزارعين والعمال ونسبة مئوية قليلة جداً من الطبقة البورجوازية ، وتشمل الأرقام الذين أعدموا رمياً بالرصاص

وكان من السهل نسبيا على لينين أن يسوغ استمرار الصراع الطبق فى النظرية الماركسية ، لأن الاشتراكية لم تكن قد توطدت ، ولذلك كان استمرار وجود الطبقات المتصارعة فى داخل الدولة من الأمور المعترف بها نظرياً . وقد واجهت ستالين فى الثلاثينيات الأخيرة مشكلة أصعب من وجهة نظر المذهب ، فبعد سنة ١٩٣٤ كانت تعتبر الاشتراكية من الناحية النظرية قد توطدت ، فليس هناك إذن مجال لصراع الطبقات فى داخل الدولة الروسية ، ولكن الواقع أن الملايين من الناس كانوا يعدمون ويسجنون ويطردون من ديارهم ، وكانت الناس جميعاً تعرف ذلك .

ولأجل تفسير هذا الشذوذ ركن ستالين إلى نظرية بسيطة ولكنها تدل على الحذق والبراعة ، فزعم أن المذبحة الداخلية قد استمرت من جراء استمرار « التطويق الرأسمالى » ، ومتى انتهى هذا التطويق بانتصار الشيوعية العالمية فإن الحاجة إلى الشرطة والضغط والكبت ستبطل ، ولكن إلى أن يحدث هذا فإن جهاز الدولة بدلا من أن ينقص قوته سيتابع إنماءها ، وهكذا كان العدو فى خارج الأبواب سواء كان حقيقياً أو وهمياً يُستدعى إلى الخدمة لكى يسوغ الاجراءات الشديدة التى تتخذها حكومة مكروهة .

ومن عادة الحكومات المستبدة أن تدعم مركزها فى عيون الذين تبسط عليهم سلطانها بإثارة العاطفة الوطنية فى وجه التهديد الذى يجىء من الخارج ، والخاصة التى امتازت بها الماركسية كما فسرها ستالين هى انه أسبغ على حيلة ديماجوجية مألوفة وقار النظرية السياسية ، واستمرار الحكام السوفيتيين على اتباع هذه الحيلة فى تقوية مركزهم مما لا مساغ فيه للشك .

ومنذ عهد جدّ قريب ، فى فبراير سنة ١٩٥٣ حملت صحيفة برافدا على هؤلاء « الذين يريدون أن يكونوا من أصحاب النظريات » ويتعلقون بفكرة « إنه مادام معسكر الاشتراكية قد تم تكوينه فقد انتفى خطر الامبيريالية على الحكومة السوفيتية » وقالت الصحيفة « إن أمثال هذا الرأى ضد الماركسية وضارة بها » ، وحقيقة أن هذا الرأى مخالف للماركسية لأن الماركسية تفترض عدم إمكان التوفيق النهائى بين الاشتراكية والرأسمالية ، أما كونه ضاراً فإن البرافدا تقصد بذلك أنه يضر باستقرار الديكتاتورية ، وهذا أيضاً حق ، لأنه متى زال بعبع المعتدى الخارجى أصبحت الحاجة إلى استمرار بقاء الديكتاتورية الصارمة لا وجود لها فى عيون هؤلاء الخاضعين لها ، وقد يكون بين هذا وبين سقوط الديكتاتورية خطوة واحدة .

وحسب مايبدو ، وفى ضوء هذا الموقف العام ، فإن التفاهم مع الحكومة الروسية بوضعها الحالى يعد من قبيل الأوهام : فمن ناحية لا يرغب الحكام الشيوعيون فى تسوية جميع المشكلات بالاتفاق والمساومة ، لأن مثل هذه التسوية تستبعد الصراع ، وهو من أهم الحجج التى يستندون إليها فى الإبقاء على الديكتاتورية البغيضة ، ومن ناحية أخرى تفضى النظرية الماركسية إلى هؤلاء القادة المركسيين بأن الصراع هو آلة تحقيق النصر التاريخى المقدر للاشتراكية فى العالم برمته ، ولذلك لا يمكن قبول أى تفاهم مع العالم الرأسمالى على أساس مساومة ينظر فيها إلى بقاء الدول غير الاشتراكية وهذا من الأمور غير المرغوب فيها . وحقيقة استبعاد أية تسوية مستديمة عند الشيوعيين ليس معناها أنهم مصممون على أن يبدءوا بإشعال الحرب ، والأمر على نقيض ذلك ،فقد أظهروا أنهم يؤثرون التصميم على تجنب أى حرب كبرى ، أو أى حرب صغرى لا يكونون واثقين من الانتصار فيها (ويستثنى من ذلك غزو كوريا الجنوبية والأرجح أنه كان خطأ فى الحساب) ويمكن أن نذكر أن لينين كان تلميذاً مخلصاً للباحث الحربى النظرى الألمانى كلوز ويتز ، وكان كلوز ويتز يعلم قبل كل شىء أن الحرب ، والسياسة التى تسير الدولة فى وقت السلم ، يلزم أن ينظر إليهما من

حيث هما مظهران للغرض القومى المستمر ، ولكنه كان يسلم بأن تحقيق هذا الغرض القومى بدون حرب هو الوضع الأسمى للسياسات ، وهذه الفقرة فى نسخة لينين الخاصة من هذا الكتاب الذى شرح فيه كلوز ويتز هذا الرأى وُضع إلى جانبها خط عريض وأيدها بكلمات ملائمة بخطه فى الهامش .

وفى العلاقات بين روسيا والعالم الحر هاوية واسعة بين غرض الشيوعية فى الانتصار النهائى الشامل على هؤلاء الذين يفاوضهم الشيوعيون لعمل هدنة مؤقتة ، وآمال هؤلاء الذين يعتقدون فى الغرب أنه بالتدرج بالصبر يمكن عمل تسوية نهائية تضمن مصالح الطرفين العادلة ، وقد يعترض بأن الرأى فى السياسة الروسية المقدم هنا موغل فى التشاؤم ، وأنه يتكىء اتكاءً شديداً على النظرية الماركسية فى حين أن حكام روسيا قد عرفوا بالمرونة فى تجاهل الماركسية عندما يلائمهم ذلك ، وأن ما يبدو غرضا مصمماً للشيوعية العالمية ليس أكثر من عنايتهم بضمان سلامتهم ومصالحهم ، وهو أمراً تشترك فيه جميع الدول ، ولننظر الضوء الذى يُلقيه على هذه المسألة التاريخ الحديث للعلاقات بين روسيا والدول الغربية .

أصول الحرب الباردة

لا يستطيع أحد أن يجادل فى رصيد حسن النية الذى توفر للاتحاد السوفيتى داخل الدولة الحرة فى نهاية الحرب الأخيرة ، وسجل الجيش الروسى الباهر حقاً فى مدافعة جيش هتلر أزال على وجه التقريب من الرأى العام فى إنجلترى والولايات المتحدة ذكرى أن روسيا ديكتاتورية شبيهة بدكتاتورية « هتلر » وأن لها سجلا فى الطغيان لا يقل كثيراً فى النكر والفظاعة عن سجل النمساوى المجنون ، ولكن الرأى العام سهل التحول ، وهؤلاء الذين كانوا يعرفون حقيقة الحكومة الشيوعية أملوا أن المستقبل قد يكون كفيلا بتحسين أحوالها ، وأن الحماسة القومية الأقرب إلى طبائع الأشياء التى اشعلتها الحرب ستتغلب على النظرية الماركسية التى أفسدت العلاقات فى الماضى ، وهؤلاء الذين لا يعرفون — وفى سنة ١٩٤٥ كانوا الأغلبية العظمى — كانوا لا يقبلون أى فكرة توحى أن الحكومة الروسية ليست حرة ولا عادلة ولا دمقراطية ويرونها دعاية كاذبة .

ولم يغب عن علم حكام روسيا ما كان يُضمره الغرب من النية الحسنة لروسيا فى آخر الحرب ، ولا بد أنه كان واضحاً جلياً لهم من المؤتمرات التى عقدوها مع الحلفاء الغربيين فى أثناء الحرب أنه ليس

هناك ما يخيفهم من تكوين كتلة حربية تشمل بريطانيا والولايات المتحدة ، ففي مؤتمر طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ وفى يالتا فى فبراير سنة ١٩٤٥ كان بين بريطانيا والولايات المتحدة من الخلاف المكشوف ما يمنعهما من أن يكوِّنا عصابة ، وحقيقة أن الرئيس روزفلت لم يخف أنه يرى أن الدور الذى يقوم به هو أن يكون رسول سلام بين الدولتين الامبرياليتين الكبيرتين المتنافستين بريطانيا وروسيا ، وُوضّح جليا للروسيين فى طهران وفى المباحثات التالية التى سارت على هذا الاساس أن جيوش الولايات المتحدة ستنسحب من أوروبا خلال سنتين على الأكثر بعد انتهاء الحرب ، ولا يستطيع أحد يذكر تريث الولايات المتحدة فى إرسال جيوشها إلى أوروبا فى سنة ١٩٤٨ حتى بعد أن وضحت نيات السوفيت العدوانية أن يشك فى إخلاص هذا التأكيد الذى قدمته .

وهكذا قدّم الخلاف المكشوف بين الدولتين الغربيتين الكبيرتين وقرب احتمال وضع أوروبا من الناحية الحربية تحت رحمة الجيش السوفيتى لستالين البرهان المقنع على ثقة حلفائه الغربيين بحسن نياته ، ولسوء الحظ أن هذه الثقة لم تكن فى مكانها ، ولم تكن بريطانيا ولا الولايات المتحدة قد عرفتا معرفة تامة أن النيات الحسنة والرغبة فى السلام والتعاون على أساس حب الخير المتبادل ليست جميعها جزءاً من مذهب

الماركسيين فى السياسة الخارجية ، أما استغلال الحقائق المادية إلى أقصى حد لأى موقف من المواقف فإنها جزء من هذا المذهب ، لذلك أخذ ستالين فى مؤتمرى مسكو ويالتا يعمل على ضمان سيطرة السوفيت على شرقى أوروبا جميعه بينما كان يُضمّن هذه السيطرة صيغا مثل « الدمقراطية » و « الانتخابات الدمقراطية الحرة » ليرضى الجمهور فى بريطانيا والولايات المتحدة والعالم الحر بوجه عام .

وإذا أعدنا النظر إلى الماضى وجدنا أن المناقشات التى دارت فى أثناء الحرب حول مستقبل بولندة والنظم التى تقام فى دول أوروبا الشرقيـــة الأخرى التى حررت من النازيين تبدو لمن يقرؤها كأنها مأساة أخطاء ، ومن المحتمل أن ستالين لم يعتقد أن أصرار بريطانيا وأمريكا على الحاجة إلى الانتخابات الحرة وإلى حكومات تختارها تلك الدول الأوربية الشرقية بمحض اختيارها كان أكثر من نفاق ، وقد أدركت بريطانيا والولايات المتحدةبالتدريج أنهما لاينجزان سوى القليل بالاتفاق على العبارات ، ولا بد أنهما عرفتا أنه لاسبيل إلى ضمان الدمقراطية فى شرق أوروبا إلا بالقوة الحربية ، ولم تكن كل منهما مستعدة لاستعمالها ، ولكنهما كانتا تأملان أن ستالين سينحنى للشعور القوى فى العالم الحر بالأهمية الحيوية لإقامة حكومة

حرة فى البلاد التى قاومت الألمان مقاومة الأبطال مثل بولندة ، وقد أظهرت الحوادث فى الخارج بعد ذلك أن الولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية وروسيا من ناحية أخرى قد أخطأت ، وأثبتت النتائج أنها حملت فى طيها كوارث .

* * *

والشيوعيون ، وهم فى العادة ماديون ، ليسوا أهلا لأن يفهموا أن المسائل الأدبية تلعب دوراً هاماً جداً فى تقرير سياسة الدول المحكومة حكما حراً ، ومع ذلك فإنه مما لاجدال فيه ان نكث الحكومة السوفيتية عهدها ، ووطأها بالأقدام العدالة والحرية فى بلاد أوروبا الشرقية كانا العاملين الكبيرين فى بدء ماسميت « الحرب الباردة » ، ولم يكن هناك عذر لإخفاق الاتحاد السوفيتى فى إدراك أن إصرار الدمقراطيات الغربية على وجود الدول الحرة فى شرقى أوروبا لم يكن مجرد نفاق ، وذلك لأنه فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، قدّم وزير خارجية الولايات المتحدة للروسيين معاهدة لمدة خمس وعشرين سنة ، ينزع فيها السلاح من ألمانيا واليابان فى مقابل إيجاد دمقراطية حقيقية فى دول شرقى أوروبا . وقد رفض مولوتوف هذا العرض على الفور ، مما جعل الحرب الباردة لامناص منها ، ودعا إلى معاهدة حلف شمال الاطلانطى ووضع الخطط الحالية

(اكتوبر سنة ١٩٥٤) لادماج ألمانيا فى نظام الدفاع الغربى بعد إعادة تسليحها ، ولقد كان الذى أدى إلى الموقف العالمى الراهن هو الإدراك المتزايد لما ترمى إليه السياسة الروسية فى شرق أوروبا ، تلك السياسة التى بلغت أوجها فى سلب تشيكو سلوفاكيا فى فبراير سنة ١٩٤٨ .

فلماذا عشيت أبصار حكام روسيا عن رؤية إخلاص حلفائهم الغربيين ؟

لقد ألمعنا من قبل إلى أن ذاك قد لايكون سببه حسور النظر وإنما قد يكون سببه السياسة الماكرة التى تتبعها ديكتاتورية تعرف قيمة ادعاء وجود عدو فى الخارج فى الدعاية التى تقوم بها لاستبقاء سيطرتها .وكان هذا الاعتبار بوجه خاص يهم ستالين سنة١٩٤٥حينما كان ينتظر تخفف حدة النظام الشيوعى فى داخل روسيا فى نهاية الحرب ، ولكن يمكن أن يعترض على ذلك بأنه كان هناك سببان وجيهان مُعيّنان يدفعان روسيا إلى عدم قبول العرض الإنجليزى الأمريكى الخاص بضمان الصداقة الأكيدة لقاء السماح بالحرية لشرق أوروبا ، أولا حقيقة أن الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٥ كانت تملك القنبلة الذرية ولم تكن روسيا تملكها، وثانياً الخوف من أن الحدود الروسية لاتكون آمنة دون أن تكون الحكومات المجاورة موالية لها ، واختبار الحقائق يرينا أن هذين السببين لايمكن تقديمهما بحق تفسيراً لسياسة روسيا بعد سنة ١٩٤٥ .

وقد بادرت الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ إلى تقديم اقتراح بإنشاء لجنة من الأمم المتحدة للطاقة الذرية يكون غرضها تقديم عروض ولتوسيع تبادل المعلومات العلمية بين الأمم للغايات السلمية، ولأجل الهيمنة على الطاقة الذرية إلى الحد اللازم للاحتفاظ بها لقصر استعمالها على الأغراض السلمية، ولإبعاد الأسلحة الذرية وجميع الأسلحة الضخمة التى تتخذ للتدمير على مدى واسع، ولايجاد ضمانات كافية بطريق التفتيش وغيره من الطرق الكفيلة بحماية الدول المستجيبة للدعوة من مفاجآت المخالفات والمراوغات » ، وسرعان ما ألفت اللجنة ، وفى يونيو سنة ١٩٤٦ قدمت الولايات المتحدة للجنة خطة مفصلة ، وقد تضمنت هذه الخطة إنشاء وكالة دولية تسيطر على امتلاك المواد الخام جميعها وأجهزة إنتاج الوقود النووى وسائر أنواع الوقود ، ويكون لها حقوق غير محدودة للتفتيش لكى تكشف المجهودات الخفية، وقد تناولت هذه الخطة تحريم صناعة الأسلحة الذرية وامتلاكها واستعمالها وإبادة الكميات الموجودة منها ، وهكذا كان على الولايات المتحدة أن تسلم مصانعها الذرية للملكية الدولية ولسيطرة هيئة تمثل فيها روسيا .

وقد بادرت روسيا الى رفض هذا المشروع فوراً ، وذلك بحجة أن فيه اعتداءً على السيادة القومية ، وحقيقة إن المشروع كان يرى الحد من السيادة القومية — وكان هذا هو هدفه فى الواقع ، لأنه بدون وضع

بعض الحدود للسيادة القومية لايمكن تكوين مجتمع دولى ، ويبدو أن ماغاب عن التفات روسيا هو أن السيادة القومية للولايات المتحدة ستنقص بموجب هذا الاقتراح نقصاً يعادل مقدار نقص سيادة الاتحاد السوفيتى .

ومنذ سنة ١٩٤٦ قدم الاتحاد السوفيتى غير مرة اقتراحات لتدمير الأسلحة الذرية مباشرة ، ولكنه لم يقدم فى أية مناسبة أى اقتراح للسيطرة الدولية أو للتفتيش لضمان أنه ليس هناك دولة تعمل سراً أسلحة ذرية أو تحتفظ بها بعد ادعاء تحطيمها ، ولذلك ظل الاشتباه قائماً فى أن المقترحات الروسية كانت من قبيل الدعاية ليس غير ، ومن الصعب أن نفكر فى شىء كان أشد خطراً على قضية السلام من رفض روسيا للتعاون فى إقامة نظام دولى يشرف على نزع السلاح ويراقبه مراقبة مجدية ، وفى وقت تأليف هذا الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٥٤) قامت حكومات الدول الكبرى بمحاولة أخرى للوصول إلى اتفاق على هذه المسألة الحيوية ، ومن الصواب أن تتوالى هذه المحاولات ، لأنه متى أعرضت الحكومة الروسية عن مقاومتها الشديدة للإشراف الدولى على الإنتاج الذرى والتفتيش عليه فإنه ليس من المبالغة أن نقول بأن العالم يبدأ يطالع عهداً للسلام ؟

وليس من السهل الاعتقاد بأن رغبة روسيا فى أن ترى على حدودها حكومات موالية ، كان السبب الحقيقى لرفضها الشروط التى قدمها العالم الحر لصداقته فى سنة ١٩٤٥ ، والدور العظيم الذى لعبته روسيا فى هزيمة الألمان كان يكفى وحده لضمان أن أى حكومة ديمقراطية تقوم فى شرقى أوروبا ستكون ميالة إلى حسن الظن بالاتحاد السوفيتى ، ولكن الحوادث مالبثت ان أثبتت أن ماتريده روسيا ليس هو الحكومات الموالية على حدودها — وهو رغبة شرعية — وإنما هو الخضوع التام لها وأن تضع تلك الدول عقلها وحريتها السياسية أو الاقتصادية تحت تصرفها .

وقد أثبتت ذلك حالة تيتو ، فقد حظى تيتو بنصيب من التأييد الشعبي ولم يكن مدينا بوجوده فى الحكم لحراب الجيش السوفيتى وحده مثل سائر الحكومات الشيوعية فى شرقى أوروبا التى تدور فى فلك روسيا ، فهو من أجل ذلك يستطيع أن يرفض طلب موسكو خضوعه التام لها الاقتصادى والسياسى ، ومع ذلك فإنه كان شيوعياً وما يزال كذلك، وقد ظل على ولائه للاتحاد السوفيتى حتى أوسعته موسكو شتما وهاجمته ، فهو لم يكن مستعداً للخضوع لذلك وجد الروسيون أن يعلنوا مقاطعته، وقد طبعت كاملة الوثائق الخاصة بهذه الحادثة العجيبة فى تاريخ الخلافات الشيوعية بعد الحرب ، وهى لا تترك مجالا للشك فى سبب وقوع الجفاء بين الدولتين [1] .

---

(١) راجع « الخلاف السوفيتى اليوجوسلافى » ، طبعة معهد العلاقات الدولية الملكى سنة ١٩٤٨ .

والحقيقة أن ستالين كان لا يعبأ فتيلا بالصداقة التى كانت دول شرق أوروبا مستعدة من أول الأمر لإظهارها له ، فقد كان يفضل إخضاعها وأن تكون فى قبضة يده بمعاونة قوة الشرطة ، وجرياً على العادة كان يؤثر المعركة التى يظن أنه يستطيع كسبها بالقوة المتفوقة على التحالف القائم على الاحترام والثقة المتبادلة .

* * *

كذلك نحن مسوقون إلى استخلاص أن نبذ روسيا فى سنة ١٩٤٥ الأساس السليم المعين للسلام والصداقة بين الأمم المختلفة المذاهب الاجتماعية ، الذى قدمته دول العالم الحر ، كان سببه أن روسيا التى أضلتها النظريات الماركسية الفاسدة لم تكن تريد السلام ، واستطاع العالم الحر وقد استنهضته نيات روسيا العدوانية الظاهرة أن يقف روسيا عن التمادى فى العدوان فى أوروبا بالاستعدادات الدفاعية التى قام بها ، واستطاعت روسيا والصين أن يجتاحا التبت فى الشرق الأقصى وأن يقوما بهجوم على كوريا الجنوبية ، لأنه لم يكن هناك اتفاق مشابه على أهداف الدفاع ، ونجحتا فى استثارة النزعات القومية فى الملايو والهند الصينية ، وكان يمكن إرضاء هذه النزعات بطرق سلمية .

وسياسة الاتحاد السوفيتى (والصين) فى كوريا ، توضح ناحيتين هامتين من السياسة الشيوعية الخارجية ، مدى تأثر تلك السياسة

الخارجية بالخوف من أن يكشف للعالم أن النظام الشيوعى لا يحظى بالتأييد الشعبى الذى يدعيه ، وعدم التخلى عن اغتنام أى فرصة للتوسع بالقوة والحيلة ، وإذا كان هناك الآن شىء من وراء الشك فهو كراهة النظام الشيوعى التى يشعر بها سكان كوريا الشمالية ، فمنذ استقرار الحكم الشيوعى فى كوريا الشمالية ، هاجر من سكانها ما لا يقل عن مليونين ونصف مليون ، أو مايقرب من ربع سكانها جميعاً ، تاركين ديارهم وفروا إلى الجنوب مفضلين مصير اللاجئين غير المضمون فى حرية نسبية على الطغيان الأكيد الذى يستهدفون له فى الحكم الشيوعى .

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٥ اتفق فى سيول على إقامة خط فاصل مؤقت للأغراض الحربية المحضة فى كوريا بين روسيا وحلفائها الغربيين ، واتفق فى الوقت نفسه على إجراء انتخابات حرة لتمكين الطرفين فى الدولة المنقسمة من التعبير عن آرائهما ، وبذلك يمكن إعادة توحيد البلاد ، ولكن مثل هذه الانتخابات لم تتم ، وقد رويت فى تقارير متوالية عن البحوث التى قامت بها الأمم المتحدة قصة الغش المحزنة وإقامة العقبات والعنف والخداع الذى تدلّى إليه الشيوعيون فى شمال كوريا ، وقد استتبع ذلك غزواً حربياً لم يكن هناك استفزاز يدعو إليه ، وكراهة الشعب للحكم الشيوعى تفسر بسهولة السياسة الشيوعية ، وكانت الانتخابات الحرة فى كوريا الشمالية لا يمكن أن تمكن الشيوعيين من الاستيلاء على الحكم .

وبالرغم من سلوك شيوعى كوريا الشمالية فى إعاقة تنفيذ شروط اتفاق سيول وفت الولايات المتحدة بعهدها فى هذا الاتفاق ، فسحبت قواتها جميعاً من كوريا الجنوبية ، ولا شك فى أنه كان من المأمول أن هذا العمل ينفى أى خوف يغشى الشيوعيين من أجل سلامتهم ، وقد كانت النتيجة المباشرة لانسحاب جيوش الولايات المتحدة هى غزو كوريا الشماليه لكوريا الجنوبية ، وحتى هذا المثل للعدوان السافر لم يكن كافيا لإزعاج المدافعين عن السياسة الشيوعية الذين لا ينفكون يرددون أن الشيوعيين لايركنون إلى الشدة إلا حينما يعتقدون أن سلامتهم مهددة ، ومع ذلك فإن قرب جيوش الولايات المتحدة لم يحفز الشيوعيين إلى غزو كوريا الجنوبية ، وإنما الذى حفزهم ـ على نقيض ذلك ـ هو انسحاب تلك الجيوش ، وقد أغرى هذا الانسحاب القادة الروسيين بالإقدام على هذه المغامرة ظانّين أنها تضمن لهم نصراً سريعاً .

ولكن لماذا نقول « القادة الروس » فى حين أن الذى قام بالعدوان هم الكوريون الشماليون ؟

لم تكن هناك جيوش روسية مع القوة الغازية من كوريا الشمالية ، ولو أن النظام والعتاد كانا روسيين ، ولكن كان من الواضح أن

الروسيين لهم سيطرة حقيقية على الغزو ويكفى دليلًا على ذلك أن الروسيين هم الذين أوقفوه فى النهاية بكلمة منهم حينما أثبتت مقاومة الأمم المتحدة أن هذا المشروع الحربى لن يكون سهلًا هيناً ، ومرة أخرى خضع الشيوعيون لحقيقة الموقف لأنهم ماديون ويؤمنون بالقوة لا بالكلام ، فقد بدأوا حرباً ظنوا أنهم سيظفرون فيها بنصر سريع ، وكانوا على أتم استعداد لوقفها حينما أدركوا أنهم مخطئون ، وفى كلتا الحالتين كانت القوة المادية هى العامل الحاسم .

ويمكن استخلاص درس آخر من القصة الكورية ، وهو أن الشيوعيين يطيلون أمد المغامرة الحربية مادامت ملائمة لأهدافهم السياسية النهائية دون أى مراعاة لمصلحة الأهالى المنكودى الحظ .

ولمدة سنة كاملة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٣ رفض الشيوعيون إمضاء الهدنة بعد الاتفاق على الشروط جميعها باستثناء شرط واحد ، وهو أن الأمم المتحدة لم تكن راغبة فى أن تعيد بالقوة الغالبية الكبرى من أسرى الحرب الذين وقعوا فى أيديها ورفضوا العودة إلى الشيوعيين، وأعلن أكثر من أربعة عشر ألفا من بين عشرين ألفاً من الأسرى وهم ممن أرسلتهم الصين باسم المتطوعين أنهم لا يريدون العودة فحسب بل أنهم سيقاومون بالقوة أى محاولة لإعادتهم إلى بلادهم .

ولا يمكن أن تتصور صدمة أشد من ذلك لكرامة الصين الشيوعية ، ولذلك لم تدخر جهداً لإخفاء هذه الحقيقة المرة وإنكارها، وفى النهاية ضحى مدة سنة كاملة بحياة كوريين وصينيين وقوات الأمم المتحدة ومعظم رجالها من جيوش الولايات المتحدة وكان ذلك كله من أجل هذا الغرور الضخم . وكانت الأمم المتحدة تخون مبادىء الإنسانية والعدالة التى قامت عليها المؤسسة لو أنها ضحت بهؤلاء الأسرى من ضحايا الشيوعية لشراء هدنة غير شريفة بشروط يعرض فيها للنظر والبحث إرغامهم على العودة إلى بلادهم ، وقد رفضت الأمم المتحدة رفضاً باتاً أن تفعل هذا ، وفى النهاية منح هؤلاء الأسرى حريتهم، فليست كل الانتصارات فى صف الشيوعيين .

والدرس النهائى لحوادث كوريا الذى يستحق أن يؤرخ هو إصرار الشيوعيين المستمر على رفض أى شروط تؤدى إلى توحيد البلاد بعد وقف القتال ، وآخر العروض التى قدمتها الدول الغربية فى جنيف سنة ١٩٥٤ لم تلق استجابة ، ومن السهل إدراك سبب موقف الشيوعيين ، فلا تسوية شريفة تطابق الأمانى القومية من بعيد تترك للشيوعيين السيطرة على أى جزء فى كوريا المتحدة ، والدول الغربية لا توافق على أى حل لا يطابق أمانى الأهلين ، وقد انتهت الأيام التى

كانت تخدع فيها بريطانيا والولايات المتحدة بالكلمات المعسولة ، وربما كان ذلك ماحدث لهما فى مسألتى بولندة ودول شرق أوروبا ، لذلك يفضل الشيوعيون أن يتركوا الموقف فى كوريا على حالته الراهنة مهما كان هذا التقسيم المصطنع ضاراً بكوريا ، « ونحن نملك مافى حوزتنا ، والديكتاتور يستطيع أن يتقدم ويستطيع أن يقف آمنا حينا من الزمن ، ولكن التراجع معناه استدعاء الكارثة ، والانتخابات الحرة فى كوريا لاتسفر إلا عن تقهقر الشيوعية .

أساس السلام

وهكذا نرى أنفسنا مسوقين إلى استخلاص أن التوتر الراهن بين الشيوعيين والعالم الحر نتيجة مباشرة لعناد الشيوعيين ، وهذا العناد قد يكون قائماً على النظرية الشيوعية القائلة بأن الصراع من الأمور الجوهرية للتقدم نحو الشيوعية العالمية ، وقد يكون سببه خوف الديكتاتورية من أن عصر استقرار السلام الحقيقي يهدد بقاءها فى الحكم ، وسببه فى هذه الحالة ليس من الأسباب المادية ، والجوهـــرى فى بحث نوع التسوية التى يمكن الوصول إليها مع النظام الحالى فى موسكو هو أن نضع نصب أعيننا أنه مهما كانت رغبة العالم الحر فى الوصول إلى تسوية نهائية فإن موسكو لا تشاركه فى هذه الرغبة ، ومن غير شك ستظل التسويات المؤقته ممكنة ، وذلك لأن كلا الطرفين لا يريد أن يبدأ حرباً كبرى ، ولكن الشيء الوحيد الذى ينهى الحرب الباردة وتكديس الأسلحة من الطرفين هو التسوية النهائية التى تراعى فيها مصالح الجميع العادلة ، ومثل هذه التسوية لا تتم بدون توفر حسن النية من الطرفين — وإلى الآن لسوء الحظ لم يقم دليل على حسن النية من ناحية الشيوعية ، وكل ما استطاع الشيوعيون أن يكشفوا عنه هو الرغبة فى وقف العدوان حينما يجدون أنه أصبح غير ملائم لأهدافهم ، كما حدث فى كوريا ، أو

عقد هدنة بطريقة لا يمكن أن يراها قابلة للبقاء سوى عدد قليل من المتفائلين كما حدث في الهند الصينية ، ومع ذلك فإنه مما يساعد أن ننظر إلى الأسس التى يمكن أن تقوم عليها تسوية دائمة حقيقية ، وذلك على أى حال فيما يخص أوروبا .

* * *

ويمكن أن نتصور ثلاثة نماذج رحبة لمثل هذه التسوية ، الأول يحتفظ فيه الروسيون بمالهم فى شرقى أوروبا ، أى أن توافق الدول الغربية على الاعتراف بدوام السيطرة الشيوعية على دول ما خلف « الستار الحديدى » ومن ناحية أخرى تقدم روسيا ضمانات بأنها لن تقوم بمحاولات أخرى للتوسع ، وفى مقابل ذلك تسهم دول غرب أوروبا فى تقليل التوتر الدولى وذلك بالكف عن وضع الخطط لإعادة تسليح ألمانيا أو للدفاع الجماعى عن غرب أوروبا بمساعدة الولايات المتحدة .

وروسيا تميل كثيراً إلى هذا الحل ، وقد أصبح من المسلم به الآن أن هذا الحل بمثابة انتحار لغرب أوروبا ، وهو من وجهة النظر العملية يتحطم إزاء عقبة توقفه على إخلاص الحكام الروسيين ، وقد علمت التجارب المرة العالم الحر أنه لا يمكن الاعتماد على أى اتفاق مع حكام

روسيا الشيوعيين يتوقف على الإخلاص ، إن أى وعد جاد تعلنه حكومة ديمقراطية وترتبط به مع حكومة أخرى يضمنه إلى حد ما وجود رأى عام حر ، ولكن مثل هذا الضمان لا وجود له فى الحكومات الديكتاتورية ، والديكتاتور يصرّف الرأى العام حسب مشيئته وبمساعدة الشرطة ، وجوقة الموافقة الإجماعية على عمل جاد اليوم قد تتلوها فى اليوم التالى جوقة مشابهة لها توافق على نقضه ، فهل كان هناك ، أو هل كان يمكن أن يكون هناك ، معارضة من الشعب للحكومة الروسية حينما كان الحبر الذى كتب به ميثاق كيلوج الذى ينص على نبذ الحرب باعتبارها آلة للسياسة القومية لم يكد يجف بعد وتدفق الجيش الروسى على الأراضى الصينية ؟ ولكن الاعتراض الرئيسى على مثل هذا الحل من وجهة نظر الغرب مازال هو الاعتراض الأدبى ، فمحاولة شراء السلام بثمن استعباد ملايين من إخواننا البشر استعباداً دائماً ستكون محاولة جد قريبة من التسفل والضعة ، وإغضاء العالم الحر على مثل هذا الاستعباد حينما لم يكن هناك وسيلة عملية لمنعه شىء ، وقبوله والموافقة على استدامته شىء آخر ، ومثل هذا الحل الذى ينم على الجبن ليس وراءه سوى حلول النقمة الإلهية بالدول الغربية وهى لها مستحقة ، ومثل هذا الحل لحالة التوتر الراهنة فى أوروبا قد رفضه رفضاً جاداً رئيس الولايات المتحدة ورئيس وزراء بريطانيا فى إعلان مشترك للمبادىء فى ٢٩ يونيو سنة

١٩٥٤ « أما من ناحية الدول ذات السيادة المقيدة حريتها فإننا لن نكون شركاء فى أية تسوية أو معاهـــدة تؤيد أو تطيل خضوعها على غير إرادتها » .

والنموذج الرحب الثانى لتسوية نهائية مع روسيا الذى يقدم فى بعض الأحيان ، هو ذلك النموذج الذى اتخذ فى الماضى لتسوية الصراع المسلح الواقع ، ويمكن أن يسمى تسوية المسألة حسب الحالة الراهنة التى يحتفظ فيها كل طرف بقوته الحربية ، ولـكن الصراع المسلح الواقع ينهى عند خط يتفق عليه ، وهذا النوع من أنواع التسوية سبق اتخاذه فى كوريا ، ورُجع إليه حديثاً فى حالة الهند الصينية ، ولـكن اتخاذ مثل هذه التسويات المحدودة للهدنة نموذجاً للتسوية النهائية مع روسيا ليست سوى ضرب من ضروب التفكير الإرادى .

وقد أظهرت مسألة كوريا أن الاتفاق على وقف القتال من وجهة النظر الشيوعية جدّ بعيد عن أى رغبة فى تخفيف حدة التوتر والوصول إلى حل سلمى عادل مطابق لرغبات الأهلين ، والمستقبل وحده هو الذى سيرينا هل يظهر الروسيون إخلاصاً أكثر فى مسألة الهند الصينية وحكومتى لاوس وكامبوديا المجاورتين لها ، أو هل تستمر الحرب الخاطفة بطريق حرب سياسية شديدة ، والحل القائم على هذا النموذج

يتحطم على نفس العقبة — إنه متوقف على إخلاص الشوعيين ، ولم يقم بعد الدليل على توفر هذا الإخلاص — والألفاظ أوالتأكيدات لاتكفى ، وهناك برهان قوى الأثر ، وهو الموافقة على الاقتراح الخاص بنزع السلاح وقبول سيطرة وتفتيش دوليين ، وهو الاقتراح الذى أيّده العالم الحر جميعه ، وبرهان آخر هو السماح بإجراء انتخابات حرة فى الدول الواقعة تحت سيطرة الشيوعية فى شرقى أوروبا وشرقى ألمانيا أو فى شمالى كوريا .

والأنموذج الرحب الثالث لتسوية التوتّر العالمى هو التسوية التى يقبلها أى إنسان ليس مرغما كل الإرغام على الاعتقاد بأن الشيوعية ستسيطر فى النهاية على العالم ولامستسلماً له،وستتضمن مثل هذه التسوية انسحاب الروسيين (والصينيين) من كل البلاد التى فرضوا عليها طاعتهم بالقوة ، وأن تُحَل فى مقابل ذلك أحلاف الدول الأوروبية الدفاعية الحالية وأن تضمن السلام العالمى هيئة دولية ليست مثل مجلس الأمن للدول المتحدة الحالى الذى تعرقل قراراته قوة الڤيتو ، وأن يكون هناك نزع سلاح عام شامل تحت إشراف دولى ورقابة فعالة (من النوع الذى كررت روسيا رفضه منذ سنة ١٩٤٦ حينما اقترحته الدول الغربية) فهل من الممكن تصوره ان روسيا تقبل فى المستقبل حلاً على هذا النمط؟

بالتأكيد، على شريطة ألا يكون على رأس حكومتها ديكتاتورية شيوعية، لأن أقل مايقال فى ذلك هو أنه ليس من المحتمل بقاء الديكتاتورية بعد قبول الشروط التى يتضمنها هـذا الحل ، وهو الحل الوحيد الحق العادل للتوتر الدولى السائد اليوم ، لأن أحوال السلم العادل التى يأتى بها هذا الحل سترغمها سريعاً على تعديل سياستها أوتطاردها من الحكم إذ لاتجد لها سنداً من التوتر العالمى ولا من التهديدات الخيالية التى تهدد سلامتها.

ونحن مدفوعون فى النهاية إلى النتيجة المستخلصة من ملاحظة التاريخ وهى أن نوع النظام الداخلى الموجود فى الأمم له أهمية حاسمة فى إمكان استقرار السلم بينها ، وأينما تـكون الحكومة مستبدة وعنيفة ولا يسيطر عليها رأى عام حر تكثر فى علاقاتها الخارجية فرص العدوان والميل إلى التوسع .

وقد وصل الفيلسوف « كانت » إلى هذه النتيجة منذ مائتى سنة على وجه التقريب ،فى بحثه عن طريق السلام الأبدى بين الأمم وصل إلى نتيجة أن السلام الدائم لا يتيسر وجوده إلا بين الأمم التى أخـــذت بالنظام الجمهورى ، أو مانسميه نحن الحكم الديمقراطى ، ومنذ عصر « كانت » لم يحدث مايلقى ظلاً من الشك على هذا الرأى .

وإذا وضعنا هـذا الرأى فى صورة أخرى قلنا إن السلام لايكون ممكنا بين الأمم إلا إذا كانت الحكومات التى تتكلم باسم تلك الأمم على سلام مع شعوبها التى تزعم تمثيلها ، وعقد صلح مع حكومة فى حرب مع شعبها إنما هو بناء على الرمل ، ومثل هذه الحكومة لاتحفل بآراء شعبها فقد تعلمت الضغط عليها وإخمادها وتجاهلها ، وأعمالها فى المستقبل لايحد منها الخوف من فقد السند الشعبى ، وستحافظ على المعاهدات مادامت تجدها نافعة لها ، وفى اللحظة التى ترى من صالحها أن ترجع عن كلمتها وتنقض عهدها فإنها تبادر إلى ذلك واثقة من استطاعتها السيطرة على شعبها عن طريق الشرطة والإرهاب ،

هل يريد الاتحاد السوفييتي الحرب ؟

ليس معنى هذا أن الحرب الكبرى واقعة لامحالة فى المستقبل المنظور (ومن خصائص مجتمعنا السريع التغير حينما نقارنه بالمجتمع كما كان قبل الحرب الكبرى الأولى أن الامتداد الذى نستطيع أن ننظر فيه إلى إلى الأمام فى تناقص مستمر) وبرغم مجهودات الشيوعيين ومن يلفون لفهم التى لا تكل فى الدعاية لتصوير الولايات المتحدة فى صورة الدولة الحريصة على الشروع فى حرب سريعة ضد الشيوعية فإنه لاشىء أبعد من ذلك عن الحقيقة لسبب واحد ظاهر ، وذلك أنه لو كانت الحرب ضد الاتحاد السوفيتى هى غرض الولايات المتحدة لكان الوقت المناسب للشروع فيها حينما كانت الولايات المتحدة تملك الميزة الساحقة ، ميزة امتلاك القنبلة الذرية ، ولم يكن الاتحاد السوفيتى يملكها ، ومع ذلك فإنه فى ذلك الحين ، فى سنة ١٩٤٥ ، وحينما كانت الولايات المتحدة تحتكر هذا السلاح الرهيب (يضاف إلى ذلك تفوقها فى الإمكانيات الصناعية) فإنها لم تهاجم الإتحاد السوفيتى بل على نقيض ذلك ـ اقترحت تسليم هذا السلاح لسيطرة هيئة دولية يمثل فيها الاتحاد السوفيتى تمثيلا تاماً .

وكذلك الحكومة السوفيتية لا تريد الحرب ـ وعلى أى حال لاترتد

حرباً واسعة النطاق ، وقد لا تتورع عن شن حرب محلية - مثل حرب كوريا حيث اتفق أن معظم ضحايا حب الروسيين للسيطرة كانوا من الكوريين والصينيين والأمريكيين ، ولكن روسيا على مايبدو فى العصر الحاضر لا تريد حرباً كبرى ، ولو لم يكن ذلك إلا لأن تفوق القوة الصناعية والامكانيات التى تصطف ضدها تقلل كثيراً من فرص النجاح[1] ، وفضلا عن ذلك فإنها وقد وضعت نصب عينيها الفقرة الواردة فى كتاب كلوزويتز والتى خلفت أثراً عميقاً فى نفس لينين ستميل إلى الرأى القائل بأن الحكمة الحربية الأعظم إنما هى فى قدرتها على تحقيق أغراضها بدون حرب .

ويمكن أن نستخلص من كل الدلائل الحاضرة أن سياسة موسكو هى الاستمرار فى العمل على إحداث التفرقة فى العالم غير الشيوعى وذلك باستغلال كل مصدر للشقاق بين بريطانيا والولايات المتحدة ،

---

(١) فى الوقت الحاضر إمكانيات الولايات المتحدة الصناعية وكندا ودول غرب أوروبا مجتمعة تفوق كثيراً إمكانيات الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا مجتمعة ، فمثلا فى سنة ١٩٥٠ كانت الأرقام القياسية للفحم ٩٦٠ مليون طن فى مقابل ٣٦٠ ، وللصلب الخام ١٤٢ فى مقابل ٣٦ ، وللبترول الخام ٢٧٧ فى مقابل ٤٤ (وهذه الأرقام منقولة من كتاب فرانسوا پروه المسمى « أوروبا بغير شاطىء » المطبوع فى باريس سنة ١٩٥٤ صفحة ١٧٨ .

أو بين فرنسا وسائر غرب أوروبا ، أو بين أمم الكومنولث البريطانية، وبهذه الوسيلة (وقد استعملها الاتحاد السوفيتى ببراعة بارعة) قد تؤمل الحكومة السوفيتية أنها تضعف فى النهاية معارضة العالم الحر للشيوعية وتوقع الخلل فى صفوفه إلى حد أن روسيا تصبح فى موقف تستطيع به أن تملى طلباتها فى ثقة واطمئنان عالمة أنها ستقبل .

وتلعب قوة روسيا الحربية دوراً حيوياً فى هذه السياسة ـ ولم تكن عرقلة روسيا المستمرة للجهود التى بذلت لنزع السلاح منذ نهاية الحرب من أجل لاشىء ، فوراء حديث روسيا عن السلم تكمن حقيقة التهديد بالحرب (١) ، وقد يكون خطر الحرب تراجع فى أوروبا خلال السنوات القلائل الأخيرة ، ولكن ليس من الحكمة أن

---

(١) المثل الآتي للطريقة التى نرى فيها التهديد بالحرب مضمراً فى ثنايا البيانات السياسية الروسية يستحق العناية ، ففى مقال ظهر حديثا فى صحيفة العمال السوفيتية المسماة « تراد » ويتناول بالتحليل حدود التعايش السلمى مع الحكومات الرأسمالية ينتهى بنتيجة أن هذا وسيلة موقوتة ولكنها مرغوب فيها ، وهى لن تحول دون سقوط النظام الرأسمالى وإنما توجد ظروفا مناسبة « لجهاد الدهماء فى البلاد الرأسمالية » ، وهى كذلك تمكن الدول الشيوعية من بناء اقتصادياتها وقواها المسلحة إلى حد أن تكون قادرة على « ضمان السلام » — والمفروض أنه بالشروط التى يريدونها ، ويختم المقال بالكلمات التالية « ويتبع ذلك أن تقوية قوات الاتحاد السوفيتى المسلحة بغير انقطاع تقوى قضية السلام فى العالم » .

ننسى سبب ذلك : توثيق الاتحاد بين أمم أوروبا الحرة وتزايد القوة الحربية ، وفوق ذلك كله العهد الذى قطعته الولايات المتحدة على نفسها بأنها ستحضر للدفاع عن ضحايا العدوان الشيوعى ، فهذه الأسباب وليس صبر الحكومة السوفيتية وحلمها هى العوامل التى نعزو إليها سنوات السلم القلق الأخيرة فى أوروبا .

ولكن إذا كان الاتحاد السوفيتى يستعمل التهديد بالحرب لتحقيق أغراضه فإن العالم الحر لايستطيع أن يفعل ذلك ، فنحن لسنا على خلاف مع الشعب الروسى ولا مع دول شرقى أوروبا التى غلبتها روسيا على أمرها ، والخلاف بيننا وبين الحكومات ، ولكننا لانستطيع أن نحارب حكومة دولة من الدول دون أن ننزل الأذى بالشعب فى الوقت نفسه ، ولذلك يستبعد العالم الحر الحرب والتهديد بالحرب باعتبارها وسيلة من وسائل السياسة ، وحرب التحرير قد تجرف فى طريقها المحرَّرين والمحرِّرين ، والمساعدة المسلحة للمخالفين والثائرين فى داخل الدول الشيوعية (إذا تمكن هؤلاء من الظهور) يمكن كذلك استبعادها باعتبارها وسيلة من وسائل الغرب السياسية ولو لم يكن ذلك إلا لسبب واحد وهو أن مثل هذه المساعدة لا تلبث أن تؤدى حتما إلى نشوب الحرب .

ولكن بالرغم من أن نهاية النظام السوفيتى الشيوعى لا يمكن أن تتم عن طريق الحرب فإنه من العبث إنكار حقيقة أن سقوطه أو تعديل صورته على أى حال تعديلاً جوهرياً سيكون مساهمة كبرى وخدمة جليلة لمستقبل السلام العالمى ، فإلى أى حد يساعدنا تحليل قوة المجتمع الروسى وضعفه على أن نقدر هل هناك أى أمل فى حدوث تغيرات جوهرية كافية بالنظام الشيوعى تستطيع أن تؤثر فى العلاقات الدولية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو التشجيع للقوى العاملة على إحداث التغيير الذى يستطيع العالم الحر أن يقدمه بطريقة شرعية ؟

نواحي القوة ونواحي الضعف في نظام الحكم الروسي

ماهي عناصر القوة الهامة التي تساعد على بقاء النظام الشيوعي قائماً في روسيا على ما به من ضغط وشدة ؟

أولا وقبل كل شيء إشاعة الإحساس بالثقة التي تولدها النظرية الماركسية حتى عند هؤلاء الذين يتبعونها دون أن يؤمنوا بها — وهى بالضرورة حال الكثيرين .

وتأتى هذه الثقة لأن كل شيء يعمل لإقناع الشعب بأن الشيوعية مرحلة تاريخية لازمة للتقدم البشرى،وقوة هذا الاعتقاد هى أنه لايمكن أن يقوم دليل عملى على بطلانه مثل سائر النظريات الماركسية ، فمثلا إذا قيل للروسى إن مستوى المعيشة فى روسيا أعلى من مستوى المعيشة فى غيرها فإن قيمة هذا التأكيد ستذهب هباءاً عند أول نظرة إلى الحياة فى أى دولة من دول غربى أوروبا ، ولكن الإيمان بأن التاريخ يؤكد الانتصار النهائى للشيوعية ليس من الموضوعات التى يسهل نقضها من الناحية العملية ، وهوعلاوة على ذلك من المعتقدات التى تريح النفس لأنها تمنيها بالأمل فى أن المستقبل سيكون خيراً من الحاضر الجديب ، وهو

كذلك إيمان يعين على الاحتمال لأنه إذا كانت الشيوعية من الناحية التاريخية أمراً محتوماً فليس هناك حاجة إلى عمل أى شىء لتغيير النظام الحاضر غير المناسب مادام من غير المنتظر من الإنسان أن يحارب القدر التاريخى.

وفضلاً عن ذلك كله فإنه إيمان خدّاع — لأنه إذا كانت الثورة الروسية البلشفية وما أسفرت عنه من نتائج قد قبلت باعتبارها جزءاً من حركة تاريخية لامحيد عنها فى تقدم الإنسانية فإن هذا يمنع أى تفكير خطر فى تحولات ممكنة أحسن حالاً.

وهذه الناحية من نواحى الماركسية بوجه عام من أقوى عناصرها المخدرة، وقد شبه إدموند ولسن الرجل الذى يعيش فى النظام الشيوعى بالواقف على السلم المتحرك، فهو يستطيع - إذا شاء - أن يصعد سريعا إلى القمة إذا بذل جهدا ومشى فوق الدرج، ولكنه مهما يصنع فلا بد من ان ينقله السلم إلى القمة.

وشبيه بهذا الشعور بالتجاوب مع الحركة التاريخية الشعور بقوة حركة الغرض الذى يبثه المجتمع الشيوعى، وهذا مايحدث للشباب فى الأجيال المتعاقبة — ولكن حدوثه غير مقصور بالضرورة على الشبان.

وحينما تكون أحوال الحياة الحاضرة كامدة غير جذابة فمن السهل أن يفزع الانسان بآماله إلى المستقبل الناضر ، وعادة النظر إلى الأشياء كما ستكون (من الوجهة النظرية) لا كما هى ، يصفها الشيوعيون بأنها « التفكير الجدلى » ومعنى هذا مثلا (كما أوضح أحد الشيوعيين الألمان) أن التصريح « بأن العمال الشيوعيين أحسن مسكناً من سائر عمال العالم » ولو انه لا يطابق الحقيقة الواقعة إلا أنه من الناحية الجدلية صادق لأنه مطابق للواقع الذى يتجه إليه المجتمع الروسى ، وواضح أن هذا نوع صريح من أنواع مخادعة النفس قد أسبغ عليه ثوب نظرية فخمة .

وفضلا عن أمثال هذه المسلاة العقلية فإن هناك الاقتناع الحقيق الواضح الذى يبعثه الشعور بالحاجة إلى كثرة البناء وبأن هناك أشياء كثيرة تتطلب العمل ونسيان الذات المستحب الذى لا يمنحنا إياه سوى الاستغراق فى العمل ،وهذا الشعور بالدينامية قد يتملك غير الشيوعيين، بل قد يستولى حتى على أعداء النظام الشيوعى ، ويفسر هذا بيان كتبه أحـــد الذين كانوا فى معسكر الاعتقال الروسى والذين لا يضمرون للشيوعية سوى الكراهة من جراء تجربتهم لها ، فقد حدث أن طغت المياه على منجم ذهب وهددت بإتلافه ،فأخذ يعمل هو وغيره من نزلاء المعتقل ليلاً ونهاراً بتفان وانكار ذات لإنقاذ المنجم ،وقد كانوا يفعلون

ذلك بالرغم من أنهم كانوا يعلمون أنهم يخدمون بهذا العمل النظام الذى توفرت عندهم الأسباب الداعية لكراهته ويطيلون بذلك أمد استعبادهم.

* * *

وهناك منبعان إيجابيان للقوة ، وقد وصف المنبع السلبى لقوة النظام بأنه جمود الكثيرين من الروسيين الذين يمقتون الشيوعية ونظام الحكم القائم ، ومعنى هذا أنهم مع كراهتهم له لايصنعون شيئاً مادامت له السيطرة على الموقف ، وهذا من بعض الوجوه غير مستغرب ، فجمود الديكتاتورية لاتنمى الاعتماد على النفس ولا القدرة على المبادأة ، وكلاهما ثمرة التجربة الطويلة للحرية ، وإذا حدث شىء يهز رواسى النظام الشيوعى الروسى فإن هذه الكتلة الجامدة من الناقمين قد تنحاز إلى صفوف أعداء الحكام الشيوعيين ، وقد حدث شىء من هذا القبيل فترة قصيرة من الزمن فى سنة ١٩٤١ ، فبعد الصدمة الأولى للغزو الألمانى بدا للكثيرين فى داخل روسيا أن النظام الشيوعى على شفا الانهيار ، واستطاع الألمان مدة قصيرة من الزمن أن يعتمدوا على رصيد رغبة الروسيين فى التعاون معهم وحسن ظنهم بهم ، ولكن سرعان ماباء الألمان بغضب الأهلين لسوء معاملتهم لهم ، ولم يكن

هؤلاء الروسيون من الميالين إلى الألمان ، ولكنهم كانوا يمقتون الحكم الشيوعى ، وكانوا يأملون أن يكون الحكم الألمانى خيراً منه ، ولذلك تنكروا لنظام حكمهم غير آسفين ، ولكن طغيان الغزاة أثبت أنه شرمن الطغيان الداخلى ، فاستحالت النية الحسنة كراهة ووطنية مشتعلة ، لقد كانوا مستعدين لنبذ الشيوعية ولكنهم حاربوا دفاعاً عن روسيا .

ولكن ربما كان سند النظام الشيوعى الأقوى من هذه الإسناد الثلاثة هو العزلة ، وقد استطاعت الديكتاتورية بقطعها الصلة بين الشعب الروسى والعالم الخارجى مدة سنوات أن تحقق غايتين استمدت من كلتيهما جزءاً كبيراً من قوتها ، الغاية الأولى هى منع سكان روسيا من أن يعرفوا حقيقة الحياة خارج الديكتاتورية الشيوعية ، وبإنكارها على الناس حق الوصول إلى معلومات صحيحة عن الحياة فى خارج روسيا استطاعت الديكتاتورية أن تصور بؤسها وشقاءها بألوان الدعاية المطلقة العنان .

والذين تشبعوا بالدعاية لا يسارعون إلى تصديق كل ما توافيهم به مصادر المعلومات الرسمية ، ولكن نقص المعلومات الصحيحة يترك

الكثير من الدعاية عالقاً بالذاكرة ، لأن الروسيين لايجدون ما يحل محله ، وهذا ما يساعد على مقاومة الإشاعات أو ذكريات الكهول والنساء العجائز اللواتى مازلن يذكرن ماذا كانت تشبه الحياة قبل الشيوعية ، وعيب هذا اللون من ألوان الخداع هو السرعة التى يفضح بها زيفه ، فكثيرون من المواطنين السوفيتيين الذين هربوا إلى الغرب قد تحدثوا عن الصدمة التى أصابتهم عند أول مشاهدتهم لألمانيا الشرقية المحتلة المنهزمة وهى مع ذلك مختلفة كل الاختلاف عن الصورة التى رسمتها الدعاية السوفيتية للغرب مما أدخل فى نفوسهم الشك فى تصوير الدعاية السوفيتية عامة .

ومظهر آخر من مظاهر العزلة لا يقل عن ذلك أهمية ، وهو مدى تمكينها الديكتاتورية من خداع العالم الخارجى عن أساليبها فى الحكم وعما انجزته ، فقد أدى ذلك إلى استحسان العالم الحر لمظهر اتفاق الآراء والانسجام بين الشعب والحكومة والديمقراطية الذى لم تأل السلطات السوفيتية جهداً فى إنشائه ، ولم تعرف حقيقته إلا منذ وقت جد قريب ، حينما توافرت المعلومات عن الحياة تحت السيطرة السوفيتية ، وقد دفع ذلك العالم الحر إلى الظن بأن الشعب الروسي والحكومة شيء واحد .

وهذا هو بعينه ما تريده الحكومة السوفيتية ، ولا تستطيع المعارضة أن تعمر طويلا فى العزلة دون أن تشعر ببعض التأييد الأدبى من العالم الخارجى ، وإذا ظل وجودها نفسه مجهولاً ولا يخطر بالبال واستبعدت كل الصلات بالعالم الحر ضاعت جميع الفرص لا ستجماعها القوة الكافية للتأثير فى الحوادث داخل البلاد ، وكما كشف أمر إخفاء الصورة الحقيقية للحياة فى الغرب فكذلك العزلة قد بدأت تتداعى رويداً رويداً ، وقد بدأت الإذاعات والسفر حتى السفر الرسمى والإشاعات تنقل إلى الروسيين صورة ما للعالم الحر المجهول ، وفى الوقت نفسه أخذ العالم الحر يعرف أن وراء مظهر اتفاق الآراء الكثير من التذمر والنقمة ان لم يكن القلق والهياج ، وربما كان التكهن بتأثير هذا التصدع الجزئى للستار الحديدى سابقاً لأوانه ، ولكن على الأقل ليس من المحتمل أنه يقوى الديكتاتورية .

وأخيراً هناك عامل الشرطة ، وهو من غير شك لا يقل أهمية عن العوامل الأخرى ، وقوة الشرطة هى دم الحياة للديكتاتورية ، وهى تستخدم فى روسيا على نطاق غير مسبوق فى التاريخ ، ولا يمكن الاعتماد الكلى على مثل هذه القوة التى لا يجد النظام ندحة عن أن يضع فيها قدراً كبيراً من الثقة ، وقد توالت عمليات التطهير فى صفوف الشرطة وبين

رؤسائها الأعلياء ، وقد تكررت حوادث الهرب المذهلة وكان الهاربون الذين يطلبون الحماية فى الغرب من كبار رجال الشرطة يعرفون كذلك أن انهيار الديكتاتورية يفتح الأبواب على مصاريعها للانتقام ، والكثيرون سيحاولون الانتقام من رجال الشرطة لما سبق أن لحقهم من الأذى ، ومن مصلحة الشرطة ألا يقع هذا ومن ثم تتفق مصلحة الشرطة مع مصلحة الديكتاتورية .

* * *

وعوامل الضعف فى النظام الشيوعى أكثر عدداً من عوامل القوة ، ولكنها كامنة أو « موجودة بالقوة » أكثر مما هى مصدر مباشر للخطر على النظام . ولكنها مهما يكن من الأمر مصدر ضعف يمكن فى بعض الظروف أن يحدث تغييراً فى طبيعة المجتمع السوفيتى الأساسية يؤدى إلى ظهور غايتها فى الواقع .

وربما كان الضعف الرئيسى هو أن المزارعين الذين يتوقف عليهم تزويد البلاد بالغذاء لايزالون ناقمين على سياسة المزارع الجماعية التى فرضها عليهم ستالين بثمن باهظ، فحينما نفذ هذا النظام فقد خمسة ملايين من المزارعين حياتهم بالجوع أو بالقتل ، ونفى أكثر من هذا العدد إلى قفار نائية ، وهذا قياس درجة كراهة المزارعين لهذه السياسة .

ولما وقف الحزب مؤقتاً خطة الزج بالمزارعين غير الراغبين إلى المزارع الجماعية ترك مالا يقل عن ثلثيهم الجمعيات التعاونية فى مدى ستة أشهر ، ولكنهم أرغموا بعد قليل من الزمن على العودة إليها ، وتظهر اليوم الأرقام التى طبعتها السلطات الشيوعيـة أخيراً أن جهاز إرغام المزارعين الضخم عجز عن تحقيق غرضه فى الحصول على إنتاج أكثر مما كان قبل شيوعية الامتلاك . فهنـاك مليونان ونصف مليون من الموظفين الحكوميين (جميعهم يحصلون على أجور أعلى كثيراً مما يحصل عليه المزارعون أنفسهم) وكل مزرعة مطلوب منها أن تجاوب عن عشرة آلاف من الأسئلة فى خلال السنة ، وبرغم ذلك لايزال المزارع يقاوم على طريقة المزارعين التقليدية وهى أن ينتج للدولة محصولاً أقل لتأخذه منه ، ففى سنة ١٩٥٣ نقص عدد الماشية عشرة ملايين عن سنة ١٩٢٨ قبل عهد المزارع الجماعية ، وقلت نسبة غذاء الفرد الواحد عما كانت قبل سنة ١٩٢٩ ، ولما كانت حالة السكان المدنيين ، وبخاصة الجيش الضخم من البيروقراطيين ، أحسن من حالتهم فى سنة ١٩٢٩ فإنه يتضح من ذلك أن المزارع لا يحصل إلا على كمية قليلة جداً .

ولكن لا يمكن الاستغناء عن المزارع ، وهو فى المدى الطويل يستطيع أن يكون بمثابة فرملة تمنع الحكم الشيوعى عن الإمعان فى

التطرف ، والواقع أنه يقوم بذلك ، ومحاولة لينين المذهبية لوضع الاشتراكية النظرية موضع التنفيذ قد وقفها المزارعون فجأة سنة ١٩٢١ برفضهم الإنتاج ، واضطر لينين إلى إتخاذ سياسة اقتصادية جديدة تشجع المزارع الخاصة المحدودة .

وقد اتخذت فى الوقت الحاضر إجراءات لإرغام المزارع أشد تأثيراً، ولذا تناقصت قدرته على التأثير فى سياسة الحكومة ، وحتى فى هذه الحالة قد أرغم الحكومة كشف الكارثة التى كانت فى سبيل اللحاق بالزراعة السوفيتية سنة ١٩٥٣ على أن تمنح المزارعين امتيازات كاملة الأهمية .

والمستقبل وحده هو الذى يرينا هل تستطيع الحكومة الحصول على إنتاج الغذاء الذى تعتمد عليه لتغذية العمال تغذية حسنة نسبياً ولتوفير الراحة ، وفى بعض الحالات ، أسباب الترف للبيروقراطية صاحبة الامتيازات وللفنيين المتخصصين ، وإذا أخفق الإرغام فلا مفر من تقديم امتيازات أخرى ، وهذا قد يقلل المدى الذى يستطيع أن يبلغه الاقتصاد السوفيتى فى استغلال المزارع لمصلحة الصناعة النامية والإمكانيات الحربية — كما يفعل فى الوقت الحاضر بشراء محصوله بثمن رخيص وإعادة بيعه بثمن غال .

وعامل الضعف الثانى الهام فى النظام الشيوعى من العوامل التى تصيب كل ثورة بعد مدة ـ وهو فقدان الحماسة الثورية ، فبمرور الزمن يحل محل الحماسة واليقين الذى حرك سابقاً هؤلاء الذين قلبوا النظام القديم وأقاموا على أنقاضه المجتمع الجديد قوة ناشطة من نوع آخر مختلف الاختلاف كله ـ وهى المصلحة الشخصية ـ

وقد تعمد ستالين فى روسيا تشجيع هـذه الحركة إن لم يكن قد أوجدها ، فعملية التطهير الواسعة النطاق فى الثلاثينيات قصـد بها استئصال شأفة « البلاشفة القدامى » وقد حققت ذلك إلى حد كبير ، وقد حل محلهم رجال أصغر منهم سناً مدينون بكل شىء لستالين وسياسته فى التصنيع ، وهم رجال عرفوا أن نجاحهم فى المستقبل سيكون متوقفاً على الخضوع للأوامر لا على الإيمان بالنظرية الشيوعية ، وفى الوقت نفسه عمل كل شىء لخلق جوائز مغرية لهؤلاء الذين كانوا مستعدين لخدمة النظام ، ونبذت المساواة ظهرياً ، وشجع التفاوت فى المرتب بين الجماعات المختلفة حتى بلغ مدى أوسع مما بلغه فى عهد روسيا قبل الحرب ، وسنت قوانين جديدة لحماية الملكية والسماح بالميراث ، وأخيراً اتجه التعليم العالى إلى الاقتصار على أولاد الطبقة التى تستطيع أن تقوم بمصروفاته وذلك بعد جعل التعليم العالى بمصروفات ، وبذلك بدأ خلق طبقة لها امتيازات فى روسيا السوفيتية .

وهذا كله لا شأن له بالاشتراكية ، ولذلك ليس من المستغرب أن يجيء فى أعقابه الفساد وعدم الأمانة بين الطبقة العليا وهو ما يميز المجتمعات القائمة على الأثرة وحدها والجرى وراء الكسب .

وظهور أرستقراطية غنية من المتخصصين والبيروقراطية ليس فى نفسه من علامات الضعف مادام المجتمع يستطيع أن يقــدم لهذه الأرستقراطية الجوائز التى تعتبرها من حقها ، وإلى الحد الذى تعتمد فيه هذه الأرستقراطية على استغلال المزارعين لأجل مستوى معيشتها ستكون مصالحها مع البيروقراطية الحاكمة لا مع المزارعين ، فمهما كانت أسباب الشكوى عند هذه الطبقة الهامة فإنها ستوازن إلى حد ما عدم الأمان الذى يسببه المزارعون الناقمون ، وقد تأتى نقطة الخطر من وجهة نظر النظام الشيوعى المتطرف العاكفة على سياسته الدينامية لجعل العالم شيوعياً فى الوقت الذى تتعارض فيه مصالح النظام ومصالح الأرستقراطية الجديدة ، والدكتاتورية القاسية فى اتباعها سياسة التوسع ورفضها السلام كما فعل الاتحاد السوفيتى غير مرة فى رفضه السلام منذ سنة ١٩٤٥ تؤثر جمع الأسلحة على عدم التسليح تحت سيطرة دولية ورقابتها ، أى أنها تضحى بالراحة من أجل التسليح وبالزبد من أجل المدفع .

ولكن الأرستقراطية الجديدة لا تعنى كثيراً بسياسة التوسع التى يتبعها حكامها ولا بالصراع فى الجدلية الماركسية ولا بنظرية لينين فى

حتمية الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية ، إنها تريد أن تتوافر لها أسباب الراحة وتهيأ لها الفرصة للاستمتاع بمزايا مركزها الممتاز وما جمعت من نشب ، والأرستقراطيون الروسيون الجدد مستعدون للخدمة ، ولكنهم لا يخدمون بمجرد دافع الحماسة ، ولابد أن يدفع لهم الأجر .

وهناك ناحية ضعف أخرى يمكن أن تكون فرملة للنظام الشيوعى فى روسيا وهى طبيعته الاستبدادية الصارمة ، والتفكير الرشيد يبين للطاغية أن البغى مرتعه وخيم ، وحقيقة أن النظام الشيوعى قد سلخ سنوات عدة وهو قابض على زمام الأمور رغم استهدافه لدرجات متفاوتة من الكراهة الشديدة خلال تاريخه ، ولقد استطاع البقاء ولكن بعد أن كلف رعاياه نفقة باهظة من الحياة والحرية ، وكلما توالت السنون ارتفع الرقم وتكاثرت الذكريات المرة .

* * *

ربما كان من أبعد الحجج التى تقدم لتفسير بقاء النظام الشيوعى فى روسيا عن الإقناع أن الروسيين لا يعرفون الديمقراطية ولا يحفلون

بها ، وحقيقة أن الفرص التى أتيحت للروسيين لممارسة الديمقراطية السياسية كانت جد قصيرة — من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩١٧ بدرجات متفاوته ، ولكن الشعب يستطيع أن يكره الطغيان ويؤثر الحرية دون أن يكون قد جرب الحكم الذاتى المنظم كما أظهر كثير من الروسيين فى عهد حكم القياصرة ، وهل هناك قوم لا يميلون بغريزتهم إلى الحرية ولا يضيقون بالاستبداد مهما تكن درجة تقدمهم وتاريخهم وتجربتهم السياسية وفقرهم المادى ؟ ولهذا دلالته الخاصة عند الروسيين ، وكلما أزداد احتكاكهم بالحياة فى البلاد الأخرى تسرب إلى بلادهم العلم بأنه ليس هناك ضرورة حقيقية تستدعى أن تكون الحياة على ماهى عليه من الكآبة .

ومئات الآلاف من الشيوعيين بل الملايين منهم قد « قدموا أصواتهم ضد الشيوعية « بأقدامهم » (على حد تعبير لينين) وذلك بالفرار أينما تيسرت لهم أسبابه فى جميع أنحاء العالم ، فألمان ألمانيا الشرقية تركوا مزارعهم وفروا إلى ألمانيا الغربية ليكونوا لاجئين ومليونان ونصف مليون من الكوريين فروا من كوريا الشمالية الشيوعية إلى كوريا الجنوبية . ومئات الآلاف من القوزاق البدو البسطاء أرتحلوا عبر سنكيانج إلى الحرية فى الهند ، ولا نعجب كثيراً من

أن الاتحاد السوفيتى يحتفظ بأكبر قوة من الشرطة عرفها التاريخ ، وقانون العقوبات فى الاتحاد السوفيتى يفرض أشد العقوبات على كل من يحاول أن يهجر البلاد (١) .

ولا نزاع فى أن الاتحاد السوفيتى يستطيع بمثل هذه الوسائل أن يحتجز سكانه فى داخل حدوده ، ولكن حقيقة أنه مضطر إلى استعمالها ونفس وجود نسبة من الأهالى محجوزة بالقوة مصدر ضعف للنظام ، وليس معنى ذلك أنه مشرف على خطر الانهيار العاجل ، ولكن معناه أنه فى اللحظة الحاسمة قد يجد نفسه بغير نصير .

ونفس هذا التحديد ينطبق على الجيش السوفيتى ، ونستطيع أن نؤكد ونحن مطمئنون ، أن الضابط السوفيتى اليوم وطنى روسى أولا وليس شيوعيا — وهذا بالرغم من أن الغالبية الكبرى من الضباط وجميع الضباط الأعلى مقاماً أعضاء فى الحزب الشيوعى ، وليس معنى هذا أن أصحاب الرتب فى الجيش معارضون للنظام ، فانهم مدينون له بمراكزهم الممتازة وما توافر لهم من أسباب الراحة ، وليس معنى هذا كذلك أن الجيش

---

(١) تشمل هذه العقوبات نفى أسرة الرجل الذى يهرب وهم يجهلون تدبيره الهرب أنظر قانون العقوبات السوفيتى جرلسون وانيشنسكايا طبع موسكو سنة ١٩٥١ صفحة ٧٢ .

السوفيتى لايمكن الاعتماد عليه فى مناصرة النظام فى حالة دخول روسيا فى حرب تحملها عليها مطامع الديكتاتورية فى التوسع ، ولكن فى المدى المتطاول تتعارض أهداف الصفوة الممتازة التى ترتدى الكسوة الرسمية والتى يتكون منها فريق الضباط مع أهداف الديكتاتورية الشيوعية وتتصادم مطامعهما ، وكثيراً ما يؤكد أن الجندى هو أقل العناصر ميلا إلى الحرب، وقليل مايحملنا على الاعتقاد بأن قادة الجيش الروسى يشذون عن هذه القاعدة .

وأخيراً هناك القوميات المتعددة التى تتكون منها الدولة السوفيتية الكثيرة القوميات ، وبالرغم من أن الروسيين يكونون أكثر الجماعات تمتعاً بالامتيازات وهم فى الأغلب الشعب الحاكم فإنه من السهل المبالغة فى وجود عداوات قومية من أجل ذلك ، وحينما توجد المعارضة بين الأقليات القومية فقد يكون الأقرب إلى الحق أن نقول إنها معارضة للشيوعية أكثر منها معارضة لغلبة السيطرة الروسية .

ومع ذلك فإن فى الاتحاد السوفيتى أجزاء قد قوى فيها الشعور القومى ، وهى تكون مراكز كامنة للمقاومة على الشيوعيين أن يحسبوا لها حساباً ، وهذا بوجه خاص كذلك فى الأقاليم التى ضمت حديثاً، فقد أرغم أهلها على قبول السيادة الروسية بالإرهاب والعنف — فى ولايات

البلطيق أو فى أوكرانيا الغربية ، وحدث مثل هذا إلى حد ما فى الأقاليم التى يسكنها المسلمون ، ففى تلك النواحى خلقت السياسة الروسية فى الماضى جيوبا للتمرد المضطرم وما تزال تعمل على إيجادها وذلك باتباعها سياسة ضد الدين وإصرارها على أن تفرض اللغة الروسية ، والتقاليد الروسية ، والتزامها سوء الظن العميق بالتقاليد المحلية لتلك البلاد ، وقد نجح النظام إلى اليوم فى كبح جماح هذا التمرد بأساليب قاسية ، مثل نفى أمم برمتها يبلغ عددها الملايين (١) ، ولكن التاريخ الحديث يرينا أنه ليس هناك عاطفة أقوى أو أطول بقاءاً من عاطفة القومية وأن الاضطهاد والدعاية لا يقضيان عليها وإنما يدفعان بها إلى المسارب الخفية .

* * *

فما هى قوة النظام الشيوعى الروسى فى الميزان ؟ من الواضح أنه قد حصل على مقدار كبير من الثبات والاستقرار وما يزال يحظى بهما ، وليس هناك أية علامة بارزة تدل على أن انهياره على وشك الوقوع ،

---

(١) حسب أوثق التقديرات الممكن الحصول عليها أكثر من مليون ونصف من السكان الذين تناقص عددهم بعد الحرب فى ولايات البلطيق الصغيرة الثلاث قد نقلوا الى معسكرات أعمال السخرة ، وكثيرون من الأقليات المسلمة التى كانت تعيش فى القرم وفى بلاد القوقاز قد ذهبوا منذ الحرب أباديد بالنفى الشامل .

ولكن إذا نظرنا إلى المستقبل ، وهو مايعنينا النظر إليه ، رأينا سمتين بارزتين يوحيان أن المعارضة الكامنة للنظام قد تكتسب تأثيراً وأهمية كافيين لإحداث تغيير فى طبيعة ذلك النظام ، وأنها إما أن تنأى بالديكتاتورية عن الانسياق مع تيار الأفكار المتطرفة المستولية عليها أو ترغمها على فسح الطريق لنظام من أنظمة الحكم أقرب إلى المعقول .

الأولى أن تاريخ الاتحاد السوفيتى حتى الآن قد أظهر أن الاتجاه الطبيعى للديكتاتورية هو استفراد رجل واحد بالحكم ، وفى أثناء حياة لينين كانت قدرته الشخصية بالمكانة التى تمنع أى منافسة بين زعماء الشيوعية على النفوذ أو أى محاولة لاقتلاعه ، وكانت ديكتاتوريته من الناحية العملية ديكتاتورية الرجل الواحد ، وبعد أن أقصاه المرض ثم الموت عن مسرح السياسة كان حكم اللجنة التى تولت الأمر فى الظاهر ستاراً لإخفاء الصراع المر الذى لايلين على الاستئثار بالسلطة ، وقد أصبحت الطريقة التى أدار بها ستالين هذه المعركة ، وحطم منافسيه الظاهرين والمستترين من القصص المعروفة . ومنذ موت ستالين رأينا مرة ثانية حكومة تشرف عليها فى الظاهر لجنة — ولو أن أحد المرشحين لرياسة الحكم قد افترسه زملاؤه ، وهو بريا رئيس الشرطة .

وقد لايعيد التاريخ نفسه ، ويتعاون زعماء الشيوعية فى الحكم بطريق

التشاور والمساومة ، ولكن النظام القائم على القوة المكشوفة لا على القانون يميل حقاً إلى تشجيع قانون الغابة، والطموح وسوء الظن المتبادل يجدان مرتعاً خصيباً فى الجو المطبق الذى تعيش فيه جماعة حزبية صغيرة تحكم بغير إشراف برلمانى ، ولا صحافة حرة أو قضاء مستقل ، مستعينة بيروقراطية ضخمة وقوة شرطية خاضعة ، وفى مثل هذه الأحوال من السهولة بمكان أن يسعى فرد واحد إلى الاستئثار بالسلطة العليا ، ووجود خلاف كبير كامن فى داخل البلاد وتأثيره على الصراع من أجل السيطرة بين الطامعين الكثيرين المتطلعين إلى مثل مكانة ستالين سيكون من العوامل ذات الدلالة ، ودور الجيش بوجه خاص فى مثل هذه الظروف يمكن أن يكون حاسماً .

الثانية أن المجتمع السوفيتى ، وفى الواقع كل مجتمع شيوعى يقوم على تناقض جوهرى ، فمصلحة الديكتاتورية ستتعارض فى النهاية مع مصالح الطبقة الوحيدة التى ترتكز عليها لدوام بقائها — وهى طبقة الأرستقراطية المتخصصة ، والديكتاتورية مدفوعة بدافع سياسة الصراع الدينمى — وهو ميراث النظرية الماركسية — وبسعيها للإذاعة الشيوعية فى العالم تتجه إلى التوسع وتزيد التوتر الدولى نتيجة لذلك ، ومعنى هذا فى دوره انخفاض مستوى المعيشة لاحتمال أعباء التسليح وتغذية حمى

الحرب لتسويغ حاجة الحكومة المستمرة إلى الكبح والشدة .

ولكن الصفوة التى تعتمد الحكومة الشيوعية عليها ، والتى تمدها بالقوة والكفاية اللتين تدين لهما بالبقاء ليس لها مثل هذا الهدف الدينامى، ومصالحها على النقيض من ذلك هى السلام مع العالم الخارجى،وتراخى التوتر العالمى تبعاً لذلك ، وتقليل نفقات التسليح لمعالجة مستوى المعيشة المنخفض ، وربما تكون طبقة المتخصص صاحبة الامتيازات أو الضباط فى روسيا السوفيتية لم تتحقق بعد من وجود هذا التناقض فى الأهداف، وربما كانوا لايزالون يعتقدون كما قيل لهم مراراً وتكراراً خلال سبع وثلاثين سنة أن هدف العالم الحر هو تحطيم روسيا وتقطيع أوصالها . ولكن فى اليوم الذى يعرفون فيه أنه ليس هناك عداء بينهم وبين العالم الحر ، وأن الذى يهدد مصالحهم ليس هو الغرب الرأسمالى ، وإنما هم حكامهم الشيوعيون، تظهر فى الاتحاد السوفيتى قوة جديدة غير منتظرة، وواجب الغرب أن يبذل مايستطيع لتقريب ساعة اليقظة هذه للإبقاء على السلام والحرية .

العمل المنتظر من العالم الحر

ما الذى يستطيع العالم الحر أن يعمله بصفة شرعية لتشجيع القوى التى قد تعمل يوماً ما على تغيير النظام فى داخل الاتحاد السوفيتى؟!

أول مايطلب هو ألا تنسى دول العالم الحر الهاوية بين مصالح الحكومة السوفيتية – الصراع – ومصالح الشعب الذى تدعى أنها تمثله، وربما كان هذا تجربة جديدة غير مألوفة فى السياسة الخارجية للدول ذوات التقاليد الديمقراطية، ولكنها فى مباشرتها تتبع ماعالجه الشيوعيون منذ ابتداء الشيوعية فى روسيا، ومنذ إعلان لينين الأول للحكومة الجديدة فى سنة ١٩١٧، وطلبه السلام، إلى آخر دعوة وجهها الشيوعيون لطلب «السلام الديمقراطى» (وذلك فى وسط دخان القنابل الشيوعية فى كوريا والهند الصينية) ظل الهدف واحداً لا يتغير: إحداث فرقة فى العالم الحر بين الشعب وحكومته «الرأسمالية» أو «الاستعمارية».

وبطبيعة الحال ليس من مبادىء دول العالم الحر أن تحاكى الشيوعيين إلى حد الاحتفاظ بطوابير خامسة لأجل هذا الغرض (كما يفعل الشيوعيون فى صورة أحزاب شيوعية أو جبهات السلام)، ولكن الوقت

قد حان لإدراك أن مستقبل سلام العالم غير متوقف على الحكومات الشيوعية مهما تحدثت فى بلاغة عن السلام ، وإنما هو يعتمد على هؤلاء الذين يستطيعون فى الوقت المناسب أن ينجحوا فى التأثير على تلك الحكومات للإقلاع عن سياستها الحقيقية المدمرة فى إبقاء المعركة دائرة، وتسوية الأمور مع حكومة على خلاف مع شعبها لا يمكن أن تكون أكثر من تسوية موقوتة اقتضتها الظروف، والاتفاق مع حكومة روسية تمثل مصالح الشعب الروسى تمثيلاً حقيقياً لا تضمن السلام الدائم فحسب ، وإنما تستنزل العدالة للملايين من أخواننا البشر - وهم الشعب الروسى.

ومصدر ضعف العالم الحر ، وهو يواجه الخطر الشيوعى هو أنه يقاوم حتى الآن سياسة دينامية بسياسة سلبية خالصة ، وكل حركة من حركات السياسة الشيوعية متسقة مع الهدف النهائى ، وهو الانتصار الشامل للنظام الشيوعى ، ومن أجل هذا الهدف الرئيسى قد رفض الشيوعيون السلام لكى تستمر المعركة قائمة « لا سلام ولا حرب » . وقد تردد العالم الحر بين التسوية المؤقتة بشروط للمحافظة على السلام وبين محاولات — نجحت فى أغلب الأوقات — لوقف تيار تقدم الشيوعية فى الجهات التى استطاعت أن تقوم عندها بهذا العمل ، ولكنها لم تتبع سياسة إيجابية شاملة حتى اليوم ، وقد آن الأوان لمواجهة

سياسة ديناميية بسياسة ديناميية معادلة لها وأخذ ورقة من الكتاب الروسى .

وكما نسقوا سياستهم جهاراً نهاراً للعمل على انهيار الحكومة الحرة النهائى فى جميع أنحاء العالم وحاولوا (ولو انهم لم ينجحوا دائما) الدخول فى محالفات مع الشعوب ضد حكوماتها المنتخبة، فكذلك العالم الحر عليه أن ينسق سياسته لتلائم الهدف النهائى المنشود ، وهو إنهاء سيطرة الشيوعية على الشعوب التى لاتريدها ، وعلى العالم الحر أن يقطع على نفسه عهداً بالتزام هذه الغاية بكل الوسائل القانونية السلمية والإعراض عن الحرب إلا إذا اضطره الهجوم عملياً إلى خوض غمارها ،وأن يؤمن بقدرة الشعوب التى تعيش تحت النير الشيوعى على أن تثبت وجودها فى النهاية وتقلص ظل هذا الحكم ، ولا يعرف التاريخ حكومة استطاعت البقاء بعد أن اعتزم المحكومون تقويض سلطتها ، وسيحدث هذا نفسه فى روسيا إذا عرف الشعب الروسى أن مصلحته فى السلام وأن حكامه الشيوعيين يقودونه حتما إلى الحرب .

* * *

والخطوة الأولى فى هذه السياسة هو إعلانها بصراحة وتكرير ذلك، وبإعلان هذا الغرض النهائى ليس غير نستطيع أن نأتى بمقابل لهذا

الإيمان بالضرورة التاريخية للشيوعية الذى خدع به ضحايا الشيوعيين خلال سبع وثلاثين سنة ، وهو إيمان يجعل أصحابه تتردد به بين الوعى والغيبوبة ، وإمعان العالم الحر فى الصمت وإخفاقه فى تأكيد أن واجبه الحق يقضى عليه بألا يقبل دوام خضوع جزء من العالم لنظرية جائرة لم يسبق لها نظير فى الضراوة ومجافاة الإنسانية قد أديا إلى عدم تشجيع من كان يمكن أن تظل روح المعارضة حية فى نفوسهم من الذين يعيشون خلف الستار الحديدى ؛ والشيوعيون أساتذة بارعون فى فى استغلال العزلة التى يخلقونها ، فى داخل هذه العزلة ، وخلف واجهة الوحدة الظاهرة الزائفة ، والتأييد الشعبى الذى تصنعه الحكومة (والذى ضلل العالم الحر غير مرة وسبق إلى حسبانه حقيقة واقعة) تخمد أصوات المعارضة وينكر عليها حتى جزاء الاستشهاد .

ولا يستطيع أحد أن يظل معارضا وحيدا فى صمت زمناً غير محدود فى وجه عالم خارجى يجهل نفس وجود معارضته ، ولكن إذا اعترف العالم الحر بوجود صوت هذه المعارضة فى داخل روسيا (كما فعل إلى حد ما فى حالة دول شرق أوروبا الدائرة فى فلك الشيوعية) فإن هذا الاعتراف وحده سيزود بالتشجيع والتعضيد الأدبى القوى التى قد تعيد فى النهاية الحكام الشيوعيين إلى الرشد أو تعمل على إيجاد حكومة أكثر معقولا فى مكان الحكومة الحالية .

وليس يكفى بطبيعة الحال أن يعلن العالم الحر أن هدفه النهائى هو إنهيار الشيوعية ـ وهى فى وضعها الحالى الديكتاتورى تدفع لامحالة إلى الحرب ، ولا بد من تأييد الألفاظ بالسياسة ،وهنا كذلك على العالم الحر أن ينتزع ورقة من كتاب الشيوعية ، لأن خطة الشيوعية هى : محاربة حكومات العالم الحر وفى الوقت نفسه التقرب من الشعوب لإيقاع النفور بينها وبين حكوماتها ، وعلى العالم الحر أن يتخذ خطة شبيهة بتلك الخطة ، وعلى هذه الخطة ان تهدف إلى السلام مع هؤلاء الذين يريدون السلام ـ وهم ضحايا الشيوعية ـ وتقبل الصراع باعتباره نوعاً من أنواع التعايش السلمى لابد منه ـ وإن يكن مؤقتاً ـ مادامت الحكومات الشيوعية قابضة على ناصية الحكم ، لأن السلام مع حكومة شيوعية ، والسلام مع الشعب الذى تحكمه تلك الحكومة لايمكن التوفيق بينهما فى النهاية .

* * *

ويراعى فى طبيعة رسالتنا لهؤلاء الذين يعيشون تحت نير الحكم الشيوعى أن تساعدهم على أن يدركوا أن العقبة الوحيدة للسلم بين شطرى العالم المنفصلين تخلقها الحكومة التى ترغم النصف الشيوعى على أن يعيش خاضعاً لها ، وليس هناك عداء فى الغرب موجه للشعب فى عالم الستار الحديدى ، كما أنه لايمكن أن يكون هناك سلام مع حكوماتهم ، وعبارة

« الصراع الغربي الشرقى » نفسها جزء من الدعاية الشيوعية، لأن الواقع أنه ليس هناك أى صراع بين نصف العالم والنصف الآخر ، ومن المأمول أنه لن ينشب هذا الصراع ، وإنما الموجود هو صراع حقيقى بين أسلوبين من أساليب الحياة ، صراع بين خصوم الطغيان والشيوعيين ، وفى هذا الصراع يكون الشيوعى فى إنجلترا فى جانب الطغيان ، كما يكون المعارض للنظام الشيوعى خلف الستار الحديدى فى جانب الحرية ، فهى معركة بدون «جبهات» وبدون « صفوف » وبدون محايدين ، لأن الذين يقفون على الحياد يعلمون حينما تفوت الفرصة أنهم كانوا جميعا فى صف الحرية المفقودة الآن ، والشعار الذى يكثر الشيوعيون من ترديده هو قولهم « من لم يكن معنا فهو ضدنا » وهو يصدق كذلك على خصوم الشيوعية .

ولكن لما كان عداء العالم الحر موجها للزعماء الشيوعيين وليس للشعب الذى يحكمونه ، فجزء جوهرى من واجب الدول التى لا تزال حرة أن تشرح وتوضح أن معارضة الشيوعية لا يمكن أن يكون معناها تحرير ضحاياها بقوة السلاح ، وإذا كانت ترى منع الحرب فإن هذا الهدف لا يمكن أن يتم بالشروع فى الحرب ، والتحرر من الشيوعية لابد أن يكون من عمل هؤلاء الذين تهيمن عليهم الشيوعية ، وهناك حجة مألوفة

يكثر ترديدها ، وهى أن الديكتاتورية الحديثة لا يمكن قلب نظامها لأنها تسيطر على وسائل الاتصالات جميعها وتملك فرصة الاستفادة من الأسلحة الحديثة ، ولكن إذا فكرنا لحظة ظهر لنا ما ننطوى عليه هذه الحجة من مغالطة ، لأن هذه الوسائل نفسها تعتمد على أيدى الرجال الذين يستعملونها وعضلاتهم ، ومتى صمم هؤلاء الرجال على الامتناع عن خدمة حكومة تسوقهم إلى الحرب تساقط بدداً جهاز أشد الديكتاتوريات قسوة كما تتناثر رزمة من البطاقات،ولكن قبل أن يحدث هذا الموقف قد تكون الديكتاتورية وجدت نفسها مضطرة إلى تعديل سياستها لمصلحة الذين تحكمهم،ومصلحتهم هى الحرية و السلام ،والاثنان فى الواقع غير منفصلين .

ولأجل أن نثبت للشعب الروسى أن العقبة القائمة فى طريق السلام هى حكومته ، وأنه ليس هناك عداء ضده (ولا تدبيرات ضد مصالحه، وأراضيه) بين الدول المعادية للشيوعية ، لا بد من الأعمال والأقوال ، وعلينا أن نكرر تأكيد رغبتنا فى وضع حد لجمع الأسلحة ود الحرب الباردة » ـ أى على الشروط الوحيدة التى لا تجعل هذا الاتجاه ضرباً من ضروب الانتحار ، وهذه الشروط هى : عدم التسليح الشامل الخاضع لرقابة دولية وتفتيش فعالين من النوع الذى قدم غير مردة ورفضه

الشيوعيون فى كل مرة، والتخلى عن السيطرة الشيوعية على جميع البلاد التى لاتستطيع الشيوعية أن تسوغ فيها هذه السيطرة بالحصول على الأغلبية فى انتخابات حرة خالصة — لأنه لايمكن أن يكون هناك سلام مع حكومة فى حرب مع شعبها ، وعلى أساس هذه الشروط يمكن إقرار سلام نهائى مع روسيا ، لأنه فى الواقع لايوجد خلاف مع الشعب الروسى لايمكن تسويته بالوسائل السلمية ، والنزاع الوحيد هو مع هؤلاء الذين لايرغبون فى إزالة أسباب التوتر — الحكومة الشيوعية .

والمستلزمات الرئيسية لمثل هذه السياسة سياسة «السلام مع العدالة» من ناحية مايخص العالم الحر، هى الاتحاد والقوة، الاتحاد لأن الاعتقاد بأن الدول غير الشيوعية يمكن فى النهاية صدع وحدتها ، هو فى الوقت الحاضر حجر الزاوية فى السياسة الروسية الخارجية .

وفى سنة ١٩٥٢ ، أوضح ستالين أن الحرب مع « الاستعماريين » ليست أمراً محتوماً لامحيد عنه ، وأن هناك متحولا ، فقد يحارب بعضها البعض ويستطيع الاتحاد السوفيتى أن يفيد من ذلك ، ومن المحتمل أن يكون هذا التفكير الإرداى قد أريد به إزالة سوء الظن الذى كان قد بدأ يظهر بين الشعب فى روسيا بأن ستالين هو الذى يدفع العالم فى

الواقع إلى الحرب لا الاستعمار ، ولم يعش ستالين ليتم بناء سياسته الجديدة ، وقد صار من الواضح أن خلفاءه يغامرون بكل شيء معتمدين على قدرتهم فى إبعاد العالم الغربى عن الولايات المتحدة ، وإبعاد دول الكومنولث البريطانى عن الولايات المتحدة ، وإيقاع النفور بين دول أوروبا ، وقوة العالم الحر متوقفة على إخفاق الشيوعيين فى تحقيق هذا الهدف .

ولا بد أن يضاف إلى قوة هذه الوحدة قوة السلاح ، وهذه القوة ، وهى الضمان الوحيد لحماية الحرية مادام المعسكر الشيوعى مكتمل السلاح لا يمكن انقاصها مقدار ذرة واحدة إلا بعد الاتفاق على نظام دولى فعال للإشراف على نزع السلاح ومراقبة ذلك

* * *

وسيعترض من غير شك على أن السياسة التى تعلن للشيوعية العداء غير القابل للاتفاق على الصورة التى نعلنها ستدفع بالشيوعيين إلى الحرب ، ولكن هذا الخوف قائم على جهل تام لحقيقة الشيوعيين ، وقليل من التحليل يرينا كيف أن التفكير الشيوعى والسياسة الشيوعية التى تتبعه لا يتأثران بأى بيانات مثيرة ، لأن الشيوعيين يبنون خططهم على حقائق الموقف المادية كما يرونها - ومعنى ذلك أنهم ينظرون

إلى قوتهم النسبية وقوة خصومهم ، فالبيانات المثيرة ليس من المحتمل أن تثير غضبهم .

وفى الماضى كانت حالة القوى المادية هى التى تحتم فى نظر الشيوعيين مسألة الحرب أو السلم ، ففى سنة ١٩٤٥ فى تركيا ، وفى سنة ١٩٤٦ فى إيران ، أثبت إظهار التصميم على مقاومة الاعتداء السوفيتى بقوة السلاح إذا إقتضى الأمر ، أنه كاف لوقف التقدم الروسى ، وفى كوريا سنة ١٩٥٠ كان سحب الولايات المتحدة لقواتها من الجنوب (وربما كذلك صدور بعض كلمات فى الولايات المتحدة لم يراع فيها الحذر يستفاد منها أن كوريا ليست لها قيمة استراتيجية) هو الذى ضلل الروسيين وجعلهم يعتقدون أنهم يستطيعون أن يهاجموا بدون أن يخشوا عقوبة ، والاستفزاز باعتباره دافعاً للعمل ربما كان يكون له معنى فى عالم سنة ١٩١٤ ، أما الحكومات التى تسترشد سياستها بمبادىء المادية التاريخية - كما تعتقد - فلن يكون له شأن على الإطلاق ، ويمكن أن يضاف إلى ذلك أنه إذا كان الشيوعيون يعتقدون (وهم يقولون ذلك دائماً) أن النيات السلمية التى لا يفتأ يكررها الغرب ليست سوى نوع من التدليس والخداع مثل نياتهم السلمية فإن من السهل عليهم أن يسموا ذلك خداعا ؛ وما عليهم إلا أن يوافقوا على

الاقتراحات الخاصة بنزع السلاح تحت الاشراف الدولى التى تكرر عرضها ، تلك الاقـــتراحات التى تضع حـدا لامكان مهاجمة الغرب لروسيا ، وهذه الاقتراحات كذلك تضع حدا لامكان مهاجمة روسيا للغرب .

ولكن قضية السلام والحرية تتطلب من كل إنسان فى الدول التى لاتزال حرة من سيطرة الشيوعية الدفاع الذى لاينقطع عن القيم التى تهددها الشيوعية، وبقاء أى نوع من أنواع الظلم فى العالم الحر وبقاء شعوب محرومة من اختيار حكامها بنفسها وبقاء بؤس وشقاء يمكن المجهود الإنسانى والتعاون أن يعالجهما - كل هذا له أثر كبير فى الاستجابة للشيوعية ، وهو كذلك يضعف حق العالم الحر الأدبى فى مقاومة تقدم الشيوعية ، والخطر الذى يتهدد الحضارة والذى يجىء فى أعقاب الشيوعية هو فقدان الحرية والاستغلال السىء للأكثرية لمصلـــحة أقلية تنعم بالامتيازات والمادية الحربية ، ولا يستطيع أحد ممن يستمتعون بتراث الحضارة الغربية الحرة أن ينكر لحظة واحدة أن هذه العيوب كلها قد وجدت وأنها لاتزال إلى حد ما موجودة ، ولكن قوة الحضارة الغربية إنما هى فى وجود الرأى العام الحر (ولم يوجد بكثرة كما كان خلال ثلث القرن الماضى) الذى استطاع على مر السنين أن يكشف

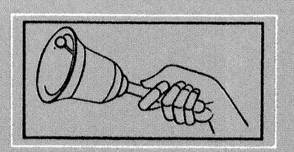
الستار عن تلك العيوب ويسلط عليها ضوء النقد ويبحث لها عن العلاج النافع .

وحصول جميع الأمم على الحكم الذاتى فى السنوات الحديثة، وارتفاع مستوى المعيشة ، ونجاح الخطط التى وضعت لمحاربة الفقر والمرض كان من البراهين الواضحة على حقيقة أن حق الحضـــارة الغربية فى الاحتفاظ بقدرتها على معالجة عيوبها ليس من قبيل الفخر الأجوف، وما يزال أمامها الكثير لتنجزه ، ودرجة النجاح قد تثبت معيار قدرة العالم الحر على الدفاع عن نفسه ضد الخطر الشيوعى .

* * *

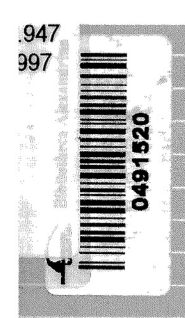
ومستقبل روسيا لايمكن أن ينظر اليه بمعزل عن مستقبل سائر الإنسانية ، وما دامت الشيوعية لاتكف عن الضغط على حرية رعاياها والشعوب الخاضعة لها ، فان التهديد بالخراب الشامل لايزال قائماً ، ولذلك يتوقف سلام العالم فى النهاية على تصميم هؤلاء الذين يعيشون الآن تحت الحكم الشيوعى على أن يضطروا حكامهم إلى نبذ نظرية لاتؤدى إلا إلى الحرب





فى هذه السلسلة

- ثورة العصر
- التعاون الاقتصادى
- الاستعمار الاقتصادى
- الحياد
- الطبقات فى المجتمع الحديث



الثمن ١٠ قروش

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
بالقاهرة